القيـــــم

بادئ ذى بدء، نذهب إلى تعريف كلمة " القيم " فى اللغة العربية. جاء فى قاموس " لسان العرب " لابن منظور:

- القيم: ١- المستقيم الذى لا زيغ فيه ولا ميل عن الحق.
  ٢- السيد وسائس الأمر.
- القيمة: ثمن الشىء بالتقويم.

ومنها اشتقت كلمة الاستقامة.

أما فى اللغة الإنجليزية فكلمة قيمة Value، ترتبط بكلمة منفعة وفائدة Utility، فقيمة الشىء هى المنفعة التى تعود على من يمتلك الشىء.

وإذا خضنا فى مجالات الحياة المختلفة، فإن منظور معنى القيمة يختلف من مجال لآخر. فنظرية القيمة / علم القيم Axiology فى الفلسفة يشمل: الأخلاق، والدين، وعلم الجمال.

أما فى الاقتصاد فتعنى قيمة الشىء المادية، والقوة النسبية لقيادة الأشياء الأخرى فى عملية المبادلة التجارية، وتنشأ القيمة من الندرة النسبية. وتشمل الأخلاق مجالات شتى من القيم، منها روحية مثل التسامى، ومنها نفسية مثل المتعة والتوافق النفسى، ومنها الخاص بالمجتمع مثل الإيثار والخير والديمقراطية. لقد اختلف المفكرون والفلاسفة فى تعريف القيم وتحديد إطارها، لذلك يحوى الجزء التالى بعضًا من هذه التعريفات.

تعريفات القيم:

- هى مجموعة من الاتجاهات المعيارية المركزية لدى الفرد فى المواقف الاجتماعية تحدد له أهدافه العامة فى الحياة، والتى تتضح من خلال سلوكه العملى أو اللفظى.

obeikandl.com

- هى عبارة عن الأحكام التى يصدرها الفرد بالتفضيل أو عدم التفضيل للموضوعات أو الأشياء، وذلك فى ضوء تقييمه أو تقديره لهذه الموضوعات أو تلك الأشياء. وتتم هذه العملية من خلال التفاعل بين الفرد بتجاربه وخبراته، وبين ممثلى الإطار الحضارى الذى يعيش فيه ويكتسب من خلاله هذه الخبرات والمعارف.
- القيم هى محك نحكم بمقتضاه، ونحدد على أساسه ما هو مرغوب فيه أو مفضل فى موقف توجد به عدة بدائل. وتحدد من خلال هذه القيم أهداف معينة وغايات، ووسائل لتحقيقها. وتأخذ هذه البدائل أحد أشكال التعبير الوجدانى والإلزام.
- ونسق القيم هو مجموعة القيم المترابطة التى تنظم سلوك الفرد وتصرفاته من خلال العقل الواعى، أو من خلال اللاشعور.
- تتغير القيم مع الزمن، وترتقى فى الإنسان من الطفولة وحتى آخر العمر، ومع نمو الفرد تزداد المعايير – التى يحتكم إليها – وضوحا، وتحديدا.
- يذهب العلماء إلى أن للقيم دورا جوهريا فى مجال الوقاية من حدوث اختلالات نفسية واجتماعية واقتصادية، بما يحقق العدل الاجتماعى، والازدهار الاقتصادى للمجتمع.
- نيتشة: الحياة نفسها تجبرنا على فرض القيم.
- الفلسفة الوجودية: تؤمن بأن الإنسان هو خالق القيم، وأن حريته مطلقة، وأن هذه الحرية هى مصدر القيمة. قول سارتر: (إن حريتى هى الأساس الوحيد للقيمة).
- الفلسفة البراجماتية: المنفعة هى المعيار الرئيسى لكل قيمة، وإن الأفكار ليست حقائق فى ذاتها بل هى مشروع للعمل.
- الفيلسوف جون ديوى: الاهتمام بالقيم فى ذاتها لا يعنى شيئا، ولكن القيم يجب

أن تكون أدوائا للنجاح فى الحياة، ووظيفتها أن تحقق للإنسان أهدافه ومطالبه فى المجتمع.

- أوجيست كونت فيلسوف المدرسة الوضعية: إن الهدف الأساسى للقيم هو بناء مجتمع جديد يقوم على مجموعة من القيم والمعتقدات المشتركة، وهى قيم تجمع بين الاستسلام للواقع، والقيم الأخلاقية مثل: النبل والكرم والمحبة.
- البرجوازية: القيم هى شهوة الكسب والتملك، وإشباع الرغبات الحسية، وكل شىء قابل للمتاجرة حتى ضمير الإنسان.
- الماركسية: القيم ظاهرة تاريخية، وإن الرأسمالية تنطوى على ظلم واستغلال واضطهاد الإنسان. إن رأس المال المتراكم ما هو إلا حصيلة جهد العامل وفائض قيمة عمله، فهو قوة تسلب العامل إنسانيته وتحوله إلى سلع تباع وتشترى.
- المدرسة الوظيفية: إن كل أشكال النشاط الاجتماعى ترتبط بالنظام الأخلاقى السائد، وهذا النظام يتميز بأنه ذو طبيعة سامية تتجاوز الأفراد رغم أنها تنبع من الأفراد، إلا أنها تسمو عليهم بعد ذلك، وتصبح مفروضة عليهم، وتجبر الأفراد على احترامها.
- الفوضوية: لا قيم فى المنظومة البشرية، وهذه الكلمة لا تعنى شيئا فى مجال الأخلاق.

تذهب نظرية كيرت ليفن K.Lewin فى القيم إلى أن جميع الأشياء لها قيمة إما إيجابية إذا كان هذا الشىء موافقا للشخص ومجتذبا له، أو قيمة سلبية إذا كان هذا الشىء غير موافق للشخص ومنفرا له، فإذا لم يتحقق كل من الحالتين كان الشخص غير مكترث بالشيء. إن قيمة الأشياء الموجودة فى البيئة الخارجية لشخص ما مرتبطة باحتياجات هذا الشخص، ويمكن تحديد الحاجة من خلال

الثلاث حالات الآتية:

- حاجة لم تشبع، وتحدد قيمة إيجابية لأى شىء يمكنه إشباع تلك الحاجة.
- حاجة قد تم إشباعها، ويؤدى ذلك إلى عدم الإكتراث بأى شىء فى اتجاه المزيد من الإشباع.
- حاجة أفرط فى إشباعها، وتعين قيمة سلبية للشىء الذى يكون من شأنه إشباع هذه الحاجة.

وبناء على نظرية لفين يحدد قيمة الشىء اتجاه السلوك، وإذا كان لشىء قيمة سيكولوجية ذات قوة كافية لتهيئة القوى النفسية الأخرى، فسوف يسلك الفرد سلوكا مناسبا للموجه. وفى مواقف الحياة العملية، قد يصادف الفرد مصاعب فى تحقيق هدفه، وتمثل هذه المصاعب حواجز للحد أو إعاقة الفرد من الوصول إلى الهدف. وفى هذه الحالة قد يستسلم الفرد لهذه الحواجز، أو يصارع ويجاهد لكى يتخطاها، إذا كانت لديه طاقة نفسية كافية وقوة إرادة للخوض فى الصراع والتغلب على هذه المعوقات.

لن يتطرق الكتاب إلى القيم من منظور العقائد الدينية، ولكن من المنظور الوضعى، الذى تكون من خلال تراكم تجارب الإنسان على مر العصور، وإن كانت العقائد الدينية تعتبر عنصرا مهما وأساسيا فى هذه التجارب. يستطيع أى إنسان فى أى ثقافة أن يمسك بالورق والقلم ليخط ما قد يتوارد على فكره من قيم، وسوف تختلف قائمة القيم، وإن كان الكثير منها سيتكرر فى غالبية هذه القوائم، مثل:

- الأمانة
- الحق
- العدالة
- الخير

obeikandl.com

- الفضيلة / العفة / الطهارة
- التسامح
- الصدق
- الحقيقة
- السعادة
- الاعتدال / عدم التطرف
- الرحمة
- التوافق / الاتساق / التناغم
- الشيوعية / عدم التملك
- الإنجاز / التغلب على الصعاب والعقاب
- إرادة القوة / العنف والعدوان
- المحبة / الحب
- الحرية / الاستقلال / مقاومة القسر والتقييد
- الديمقراطية
- التكيف والملائمة
- المشاركة الوجدانية
- التسامى
- الجمال
- الإيثار
- الصداقة
- الشفافية
- التقوى / الورع / التدين

obeikandl.com

- اللذة / المتعة
- السيطرة والتوجيه: بالإغراء / الإقناع / الإيحاء
- النظافة
- المساواة
- الاحترام
- النظام / الترتيب
- جمع المال
- المسالمة / السلام
- القيمة المضافة
- العلم / البحث العلمى
- الأسرة / القبيلة / الدولة
- المركز الأدبى / الاجتماعى
- الانتماء / روح الفريق
- الواجب
- الالتزام
- الحد من تلوث البيئة
- ... إلى آخره

يمكن تسمية مجموعة القيم بمصطلح " نسق القيم "، وهى مجموعة من القيم المترابطة التى تنظم سلوك الفرد وتصرفاته من خلال العقل الواعى، أو من خلال اللاشعور. يمكن تشبيه هذا النسق " بمحفظة القيم " التى تحوى مجموعة مختلفة من القيم. إن محفظة القيم هى مجموعة متنوعة من القيم يشكلها الفرد من خلال تفاعل الشخصية مع الثقافة العامة السائدة فى المجتمع، والغرائز الموروثة،

obeikandl.com

وأيضا المصالح الفردية. كما يوجد للفرد محفظة قيم، فالمجتمع أيضا له محفظة تتكون من خلال ثقافته، والتى تتغير مع الزمن وعلى مر العصور. كانت العصور الأولى للإنسان القديم تتميز بالشيوع فى كل شىء، حيث انعدمت الملكية الخاصة، فكانت الحيوانات ملكا لأول من يصطادها، والثمار هى حق أول من يقطفها، حتى الجنس كان مباحا قبل أن يعرف الإنسان تكوين الأسرة والارتباط بالزواج. ثم بدأ ميلاد الحضارات، وتطورت العلاقات الإنسانية نحو القيم الأخلاقية حتى قبل نزول الأديان السماوية. عرف الإنسان تنظيم العلاقات بين الذكر والأنثى ووضع قيمًا لهذه العلاقات، بالرغم من اختلافها من ثقافة إلى أخرى. ومر الزمان وساد التزمت والغيرة على المرأة، والتركيز على حق الرجل فى ملكيته للمرأة. سادت نظرة الرجل للمرأة كأم تربى أبناءها، ووعاء جنسى موقوف لرغبة الرجل وحده. ومع مرور الزمن ظهرت الحضارة الغربية الحديثة فتغيرت القيم فى هذه الثقافة، مع الاحتفاظ بها فى معظم الثقافات الشرقية، فالقيم النسبية تتغير بالزمان، والمكان، وتفاعل أحداث وثقافات، وخلافه من عناصر ديناميكية كثيرة.

تبدأ عملية تشكيل القيم بعد الانتهاء من عملية التحديد والتقييم فى مرحلة الطفولة. ذهب عالم النفس الأمريكى كارل روجرز إلى أن عملية التقييم العضوى عند الأطفال هى عملية ذات كفاءة عالية، وتتم على أسس قوية، فما يرغب فيه أو ما يكره هى أمور واضحة تماما بالنسبة له، فبدون أن يعى يذهب الطفل إلى أن القيم التى تحافظ على العنصر البشرى وتنميته هى المفضلة لديه. إن القيم الإيجابية المفضلة عند الطفل هى التى ترتبط عادة بإحساس الدفء والأمان والتدليل والاحتضان. إلى جانب ما تقدمه هذه التجارب فى تنمية الطفل من تعرف على جسمه وتعلم المشى والقدرة على اللعب، فإن روجرز أوضح أن الأطفال لديهم حب استطلاع لا حد له. أما الإحساس بالجوع والعطش، أو الشعور بالألم

والأصوات المزعجة، أو الأشياء ذات المذاق المر مثل الدواء، فهى تعتبر قيما سلبية وتجارب مؤلمة لا يرغب الطفل الخوض فيها مرة ثانية.

إذا كان الكائن الحى يبدأ حياته بالتحسس لمعرفة ما يحبه وما يكرهه، وما هو طيب أو سيئ، فإن عملية التقييم تتم فى مرحلة الطفولة بصورة مرنة، وبسلاسة طبيعية. إن المعيار المطبق بالنسبة للطفل فى التقييم الإيجابى أو السلبى للأشياء، هو وفق ما إذا كان هذا الشيء يحافظ على نموه وتطوره أو العكس، فهى عملية تقييم تتم فى هذه المرحلة بتلقائية دون حكم مسبق أو تفكير وتحليل. يعتقد روجرز أن الإنسان الناضح سوف يكون فى حالة نفسية أفضل لو عاد إلى هذا الأسلوب فى التقييم، دون تعقيدات كثيرة. يعتقد علماء النفس أن الإنسان فى مرحلة البلوغ ينفصل عن العملية السلسة الطبيعية فى التقييم، فالإنسان ينمو نحو التعقيد وعدم المرونة، وكذلك عدم التأكد من القيم، وعدم الإحساس بالراحة، لتبدأ مرحلة جديدة من الرحلة الحياتية تبدو فيها تجارب الحياة فى صورة دفاعية ضد تجارب مشكوك فى صحتها. فى هذه المرحلة يبدأ القلق والتوتر المرتبط بالبلوغ، فيتوقف التقييم الصحيح الذى كان يتم فى مرحلة الطفولة بتلقائية ومرونة.

عندما يكبر الفرد وتتطور الذات فإنه يجبر نفسه على اتباع سلوك الآخرين على حساب أحاسيسه الشخصية وما يرغب فيه، ويتجه بالتدريج إلى كونه كائنا اجتماعيا يبغى التقدير الإيجابى من المجتمع. وحينما يتعلم الإنسان أن يقيم ذاته من منظور الآخر أى كما يراه الآخرون، سيحدث تفاعل متبادل بين تقييم الشخص لنفسه وقيم مجتمعه بنسب متفاوتة، يختلف عن الأسلوب القديم غير المرن الذى كان يعتمد على تقييم الشخص لذاته فقط دون أى اعتبار للآخر. سيكتسب الإنسان تدريجيا عدة قيم من المجتمع المحيط، وتختلف هذه القيم عن القيم الناتجة من خبراته الذاتية ومشاعره الداخلية. يبدأ الإنسان بالتضحية بقيمه الذاتية من أجل

الحصول على قبول الآخرين له. ومن أمثلة القيم الجديدة التى يكتسبها الفرد الامتثال لتعاليم السلطة: مثل الأب، والمدرس، الرئيس فى العمل، الحاكم، وعدم خرق القوانين وإتباع العقيدة السائدة، وخلافه. وأحيانا يقود السعى نحو الحصول على "التقدير الإيجابى من الآخرين" إلى الانفصال بين تجارب الشخص الذاتية ورغباته، وبين سلوكه الاجتماعى، فقد أصبحت الحرية السلوكية مقيدة بقيود خلقها الإنسان ذاته لكى يتكيف مع المجتمع.

يذهب عالم النفس كارل روجرز أيضا إلى عدم حتمية الانفصال بين تجارب الشخص القائمة على نوازع داخلية شخصية، وبين ما يقوم به من سلوك غايته إرضاء المجتمع. فبالرغم من أن الإنسان يسعى إلى التكيف مع المجتمع بمحاذيره، وأنماطه المختلفة، وإيجابياته وسلبياته، وقيمه المتوافقة والمتعارضة مع قيمة الشخصية، فإن الكائن البشرى – من مبدأ تأكيد الذات – يحاول أن يحتفظ بنزعته الطبيعية لتحقيق ذاته فى الواقع القائم وفق احتياجاته ورغباته. لكى يتحقق للإنسان ذلك، فهو بحاجة إلى تقدير واعتبار غير مشروط لذاته وشخصه Unconditional Self-Regard إن هذا التقدير غير المشروط وغير المقيد للنفس يحتفظ به الإنسان عندما يؤمن أن أفكاره وأحاسيسه ومشاعره وتجاربه لها نفس القيمة الإيجابية التى ستجلب له تقدير وقبول الآخرين، فالإنسان فى هذه الحالة ليس فى حاجة لكى ينبذ أو ينكر أية مشاعر أو قيم ذاتية لكى يحظى بالقبول الإيجابى من الآخر. إن الإنسان السوى هو الذى يصل إلى حالة الانسجام / التوافق / التناغم Congruence بين التجارب والخبرات الطبيعية للفرد وبين تجاربه مع الآخرين، أى يكسب التقدير الذاتى دون أن يتعارض ذلك مع علاقته بالآخر.

أوضح روجرز أن فصل الذات عن النزعات الفطرية الطبيعية، وما يصاحبها من تقييم ذاتى / غير موضوعى، هو عملية " التغريب " الأساسية بين

الإنسان وفطرته. يبدأ هذا التغريب عندما يسعى الإنسان إلى نيل تقدير الآخرين، يدفعه إلى التطوير فى شخصيته وقيمه حتى يتمكن من الوصول إلى: قبول الآخر، والحب من أناس يعتبرهم مُهمين له، والذى لا يحصل على تقديرهم إلا بشروط. فالإنسان – بصفة عامة – يقدر ذاته عندما يسلك بصورة ملائمة للآخر، ويقل هذا التقدير لو تضاءل تقدير الآخر له. وبسبب الرغبة فى الحصول على الاعتبار والتقدير من الآخر، فإنه يقوم باختيار وتقييم لسلوكه لمعرفة ما إذا كانت مقبولة أو مرفوضة من المجتمع. وقد يظهر الصراع الداخلى بين الذات الفطرية وضغوط البيئة / المجتمع، إذا حدث تعارض ملموس، يكون على الفرد أما أن يساير ذاته، أو يغير من قيمه بأولوياتها، وسلوكه فى تعامله مع البيئة المحيطة حتى يستطيع أن يتكيف مع المجتمع.

إن الشخص المثالى – نظريا – هو الذى يوظف جميع قدراته، والذى يكون تقديره لذاته غير مشروط بتقدير الآخرين له، ويغير من سلوكه كى يتواءم مع المواقف / التجارب الجديدة بصورة مرضية، وهو القادر على مسايرة الحياة بصورة بناءة فى اتجاه الحصول على مزيد من التطور والنمو، وتحقيق الذات فى عالم واقعى بعيدا عن الأوهام والخيال والمستحيل والغير ممكن. هذا الشخص لا يتبنى أى وسائل دفاعية / احتيالية، أو يغير بصورة مشوهة تجاربه الحياتية، فهو يختبر الواقع لكى يصل إلى الحد الأقصى من الإشباع والرضى عن النفس، دون أن يتقمص دور الإنسان الناجح والراضى عن حياته. هذا الإنسان المثالى يعرف جيدا كيف يتعامل مع الآخرين – باختلاف سمات شخصياتهم – بمرونة وتناغم، وتكوين علاقات ناجحة فيها فائدة لجميع الأطراف. ويتوج ما سبق بالرضا الداخلى عن الذات والقناعة التى لا تنقص من الطموح والسعى نحو التفوق والنجاح. لقد أرضى هذا الإنسان ذاته وضميره، وتوافق مع البيئة / المجتمع بعقائده وثقافته.

ليست جميع القيم متوافقة ومتناغمة، فمن أجل الوصول إلى مركز أدبى / اجتماعى متميز، يسحق الإنسان بأرجله قيمًا أخرى، فطريق قيمة المتعة – مثلا – مفعم بالأنانية. يوجد تعارض بين كثير من القيم يؤدى إلى توطيد الشر فى منظومتنا البشرية، فمعظم القيم تعمل كأنها هى وحدها الكائنة فى هذه المنظومة، أو تتصرف فى استقلال عن غيرها. إن صراع القيم حقيقة قائمة، يغذيه انقسام وتنوع المعايير بين البشر، حيث يجد الإنسان سعادة فى معايشة الصراع الذى يلهيه عن كشف الشر الكائن فى ذاته، كما يلهيه عن فراغ قاتل إذا عاش الإنسان فى محبة وسلام. حَمَّل الدكتور زكريا إبراهيم الجنس البشرى شرور الكون، كما جاء فى كتابه " مشكلة الإنسان " فى الفقرة التالية: (ولكن البشر قد اخترعوا الشيطان حتى يحملوه مسئولية كل ما فى الوجود من تنافر وتشاحن واضطراب ونزاع وخصام، فهم يقولون إن الشيطان هو الفساد الأكبر، والضلال الأعظم، والشر المحض، والكراهية نفسها بدمها ولحمها، وليس أيسر على الإنسان من أن يلقى بتبعة الشر على الشيطان، فى حين أن الشواهد جميعا إنما تنطق بأنه هو نفسه الشيطان. أليس الإنسان هو الذى ينشر الانقسام والخصام، ويُغلب الحرب على السلام، ويتفنن فى خلق ضروب التعذيب والإيلام. أليس بنى آدم هو ربيب الشر الذى لا يكف عن إشاعة الاضطراب بين القيم، وتوطيد دعائم الخلاف بين المعايير. ألا يحق لنا إذن أن نقول إن بضاعة الشر لم ترج إلا لوجود بنى البشر فى هذا العالم، أولئك المشترين الذين يتهافتون على سلعة الشيطان، لأنها بضاعتهم ردت إليهم).

يزعم البعض أن الحق يتطلب الخير، وأن الخير والحق يسيران دائما جنبا إلى جنب، وأن الجمال هو بهاء الخير، وأن لسان الجمال ينطق بكلمة الحق. إن كل المزاعم العريضة التى يصورها المثاليون الحالمون إنما هى مجرد تمنيات

طيبة تجيش بها بعض الصدور المتفائلة. ولو أن القيم كانت كما يقولون متلائمة ومتوافقة، لما وجد الإنسان أيه صعوبة فى تمييز واجبه، ولما كان ثمة موضوع للتردد الخلقى. إن الإنسان لا يستطيع أن يبرز قيمة من القيم إلا على حساب غيرها من القيم، فإذا وضع أولوية للجمال، فمعنى ذلك أنه يضحى بالخير أو بالحق، وإذا قام الإنسان بإعلاء قيمة الحق، فقد يكون ذلك على حساب الخير أو غيرها من القيم. لو كان الأمر المنافى للأخلاق هو فى الوقت نفسه دميم الشكل، كريه المنظر، باعث على النفور، مسبب للألم، أو لو كانت الرذيلة هى فى الوقت نفسه واضحة البطلان، صارخة الدمامة، لما كانت هناك مشكلة أخلاقية على الإطلاق، بل يؤدى إلى إفلاس الشيطان، ولفقد الشر كل عملائه، ولكن الحقيقة هى التى تؤلمنا، والخطأ هو الذى يستهوى بصائرنا، والخطيئة هى التى تعزى نفوسنا، والرذيلة هى التى تأخذ بمجامع قلوبنا. يبدو لنا الخير فى كثير من الأحيان بمظهر الأمر العسير المنفر، كواعظ ثقيل الظل يلاحقنا بنصائحه المملة أو كرجل دين ضعيف الاستمالة، يصدع رءوس البشر بأقواله المعادة. ألا تظهر لنا التجربة أن الجمال كثيرا ما يكون حليفًا للشر، فى حين يتواكب القبح مع الخير.

تنظر المثالية إلى العالم نظرة يكون فيها الفكر هو الحقيقة الأساسية، وأن الذهن البشرى الفردى هو مركز المعرفة فى المنظومة الكونية، ويقوم الذهن بالبحث والاستكشاف حتى تحدث المعرفة النهائية الكاملة المتكاملة مع انتهاء المنظومة وفنائها. كتب هنتر ميد فى كتاب "الفلسفة – أنواعها ومشكلاتها": (القيمة فى نظرية المثالية كامنة فى الكون، وهى موجودة فى صميم الأشياء، كما أن الحوادث والعمليات الكونية تتجه إلى تحقيق الخير إلى أقصى حد ممكن، وعلى ذلك فالقيمة شىء موضوعى يكتشفه الإنسان بوصفه أساسيا فى الكون... أما المذهب الطبيعى فيرى أن العالم لا يتضمن من القيمة والخير إلا بقدر ما نستطيع

نحن أنفسنا تحقيقه بجهودنا الخاصة من بيئة غير مكترثة، فالقيم لا وجود لها إلا بالنسبة إلى الكائنات العضوية الحية... هل نحن نرغب فى أشياء ومثل عليا معينة لأنها خيرة؟.... أم نحن نسميها خيرة لأننا نرغب فيها بطبيعتنا، ونحاول على هذا النحو أن نبرر رغباتنا بإطلاق أسماء تمجيدية عليا؟.... إن الخير فى نظر المثالية يكمن فى أشياء معينة وأفعال معينة، لأن هذه الأشياء والأفعال تكون جزءا له دلالته من الخطة الكونية، أما المذهب الطبيعى فيرى أن هذه الأمور الخيرة لا توجد إلا بسبب طبائعنا البيولوجية وحاجاتها، فلدينا بوصفنا أفرادا وبوصفنا جنسا فى آن واحد حاجات ينبغى الوفاء بها إذا أردنا استمرار بقائنا الفردى وتحقيق مصالح النوع الذى ننتمى إليه، ولذا فنحن نطلق اسم الخير على تلك الأشياء "كالطعام"، أو النظم "كالزواج" أو الأفعال "كتضحية الوالدين" التى تعنى بأى من الحاجات الأولية، وهذا هو كل ما يمكن أن يعنيه اللفظ فى نظير المذهب الطبيعى، أما الحديث عن "الخير" بوصفه ما يعلو على مصالح البشر فهو بالنسبة إلى تفكير المذهب الطبيعى حديث لا معنى له).

عاش الإنسان على مدى سنوات حضاراته الماضية على يقين بأن القيم مطلقة، وأن معايير الأخلاق ثابتة، فلا يوجد إلا قانون واحد يسرى على كل البشر، قانون مستقل عن المكان والزمان، يلزم الإنسان بالواجب والالتزام، يبين له الخطأ والصواب، ويظهر لـه الخير والشر فى جميع المواقف وفى كل الأحوال، قانون يجب أن يطبق فى كل الثقافات، كما طبق فى الماضى يستمر فى الحاضر والمستقبل. كان الرأى السائد هو أن تعريف الخير والشر كائن فى الضمير حتى قبل نزوله فى الكتب السماوية، ولد الإنسان به لتتوارثه الأجيال حتى يوم الحساب، ليبدأ التقييم الإلهى. يرى مذهب المطلق أنه لا يوجد شىء قد يسمى بتطور الأخلاق، فالقيم الأخلاقية ثابتة بالرغم من محاولة الإنسان تعديلها وفقا لمصلحته

الشخصية، وتماشيا مع العادات السائدة، أو جهلا، أو تعنتا وكبرياء. ومرت الأيام وقامت الثورة الفكرية فى العصر الحديث لتنكر النزعة المطلقة، وتنادى بالنسبية التى شملت جميع جوانب الحياة بعد أن تعرف عليها علماء الفيزياء. كان وصف هنتر ميد للمذهب النسبى: (مذهب يقف على طرفى نقيض مع كل ما هو أساسى فى النزعة المطلقة، فبينما النزعة المطلقة واحدية، فإن النسبية تميل بشدة إلى التعددية. وبدلا من قانون أخلاقى واحد شامل وثابت تقول النسبية بعدد كبير من هذه القوانين، وبدلا من " خير " واحد، نجد هنا عددا لا حصر له من حالات الخير، وبدلا من " القيمة " بمعناها الشامل، نجد قيما... هذه المدرسة ترى أن كل خير نسبى، إما تبعا لما تقول الجماعة إنه صواب، وإما تبعا لما يشعر الفرد أنه صواب، وكل قيمة نسبية تبعا للزمان والمكان، وهى تتوقف على طبيعة النوع البشرى وحاجات الكائن العضوى الفردى فى داخل هذا النوع، أما الكلام عن الخير بوصفه شيئا مستقلا فلا معنى له... ويرى النسبى أن من المستحيل بوجه خاص تجاهل طبيعة الإنسان والاهتمامات الفريدة المميزة للبشرية، ولذلك فإن كل ما يقوله أنصار المطلق عن "الخير الكونى" الذى يفترض أنه يسرى على أى نوع يمكن تصوره من المخلوقات العاقلة، وضمنها أهل المريخ أو الملائكة، إنما هو محض هراء). لقد ظهر فى العصر الحديث علم اجتماعى حديث وهو الأنثروبولوجيا Anthropology ، وهو علم يبحث فى أصل الجنس البشرى، وتطوره وأعراقه، والتغيرات التى تمت فى عاداته ومعتقداته على مدى تاريخ الإنسان. أدت الأبحاث فى هذا الفرع من العلم إلى تكوين قاعدة بيانات هائلة حول موضوع تغير العادات البشرية والمعايير الأخلاقية، ليستشف الباحث تسلسل هذا التغير، وبالتالى إنكار المعايير المطلقة.

من منطلق الملل الإنسانى، وإشباع لغريزة البحث وحب الاستطلاع، درج الفلاسفة إلى تصنيف القيم فى سلسلة من الازدواجية المتقابلة. وفى النقاط الأربع التالية يظهر الفكر الإنسانى فى تناوله لعملية التصنيف:

١ - القيم الكامنة والقيم الوسيلية:

تعرف القيم الكامنة Instrinsic Values بتلك التى لا تخدم غاية معينة فهى خير فى ذاتها دون الرجوع إلى قيمة أخرى أشمل منها. ومثال على ذلك "السعادة" التى يحاول أن ينشدها الإنسان لذاتها، فهى ليست وسيلة لشىء آخر، فالسعادة قيمة فى ذاتها. فى المقابل توجد القيمة الوسيلية Instrumental Values، مثل "الثروة" التى يسعى إليها الإنسان لتحقيق أهداف أو قيم أخرى، أو لإشباع رغبات مادية، أو لإنفاقها فى أوجه الخير.

٢ - القيم العليا والقيم الدنيا:

قد يكون هذا التصنيف غير محدد، فالمدى واسع بين العليا والسفلى يدخله فى حلقة الغموض، ولكن يمكن اعتبار القيم السامية المتعلقة بالروح والتسامى فوق الماديات والقفز فوق الأمور الدنيوية هى قيم عليا، وبالتالى تكون القيم الكائنة فى الطرف الآخر من القيم الدنيا.

٣ - القيم الشمولية والقيم الاستبعادية:

تختص القيم الشمولية Inclusive Values بالقيم التى يمكن أن يشترك فيها مجموعة من البشر، فالاستمتاع بجمال وروعة الفنون التشكيلية والمسرحية يشترك فيه الكثير من الأفراد، كما أن اللقاءات الاجتماعية تدخل التسرية والترفيه على معظم المجتمعين. أما القيم الاستبعادية Exclusive Values فهى التى تمنع الاستمتاع بها أن يقوم فرد أو مجموعة بالاستمتاع بنفس الشىء، إن شراء لوحة فنية معروضة فى صالة عرض يمنع الآخرين من الاستمتاع بها بالرغم من أن المشترى سيتمتع بها وحده.

٤ ـ القيم الدائمة والقيم العابرة:

إذا كانت الفنون بأشكالها المختلفة من القيم الدائمة، فإن اللذة الجسدية تعتبر من القيم العابرة التى تزول بعد وقت قصير. إن قراءة كتاب قيم قد يستغرق بضعة ساعات أو بضعة أيام ولكن يعتبر من القيم الدائمة لأن مشموله وأفكاره القيمة تختزن فى الذهن ويمكن استعادتها بالتذكر.

ولكن أحيانا قد تكون القيمة العابرة أثمن من القيمة الدائمة، مثل جرعة الماء لإنسان ظمآن قد تحييه وتقيه من الموت عطشا.

لن يتناول الكتاب كل باقة القيم، أو الخوض فى بعضها بالتفصيل، فالكلمة الواحدة من بعض هذه القيم قد تغطى – إلى حد ما – الشرح والتحليل. الفضيلة مثلا تعنى فى اللغة العربية: الدرجة الرفيعة فى الفضل، والفضل ضد النقص والنقيصة، أما الالتزام فهو تعهد أوجبه الفرد على نفسه. يستطيع الإنسان أن يصنف قيمه من عدة مناظير: مجرد وطبيعى واجتماعى وشخصى، وأن يحاول ترتيب القيم حسب أولويات تجربته الفردية، ولكن سيصطدم فى عملية ترتيب المعايير بالعجز فى الوصول إلى القيمة العليا أو ما يسمى بالخير الأسمى Summum Bonum. سوف يتضح أن معظم الأشياء التى تظهر لنا فى صـــورة "خير" فى حد ذاتها، ما هى إلا وسيلة لخير أرقى وأشمل، وأن النسبية الفردية تجبره على البحث عن القيمة المطلقة والشاملة والتى لا يعلوها قيمة أخرى. يجب أن تتسم هذه القيمة فى صورتها العملية بالتحقيق – حتى لو كان تحقيقا جزئيا – فلا فائدة من التشبه بالملائكة المعصومين من الخطأ، فنحن بشر مزروع فينا غرائز تشدنا إلى الانزلاق فى الخطأ. نحن نحيا على أرض دنيوية مادية، ولم نحلق بعد فى ملكوت الآخرة. وما دمنا أحياء لا أمواتًا، فلا عيب فى التعرض لأقدم قيمة وجدت فى البشر بالغريزة وهى " مذهب اللذة ".

مذهـــب اللـــذة

اشتق مصطلح مذهب اللذة Hedonism من الكلمة الإغريقية Hodone بمعنى اللذة، وهو مذهب خاض فيه الفلاسفة منذ أن بدأت الفلسفة فى الحضارات القديمة، ثم أخذ قدرا من النشاط الفلسفى فى العصور الوسطى والحديثة مع المذاهب الأخرى مثل المذهب المثالى والمذهب الطبيعى. كان الفضل للمفكر الإنجليزى جيريمى بنتام فى نهايات القرن الثامن عشر، لإعادة تشكيل مذهب اللذة بتغليفه بالطابع الاجتماعى لتتحول اللذة الأنانية إلى لذة عامة. مزج بنتام فرعى اللذة: النفسى الذى يرى أن الإنسان يبحث غريزيا وآليا عن اللذة ويتجنب الألم، والفرع الأخلاقى الذى يذهب إلى أن الإنسان يسعى وراء اللذة من أجل المنفعة العامة أى منفعة الجماعة. كتب بنتام فى كتاب " مبادئ الأخلاق والتشريع ": (لقد وضعت الطبيعة الإنسان تحت سيطرة سيدين مطلقين، هما الألم واللذة... فهما يتحكمان فى كل ما نفعل، وكل ما نفكر فيه، ولا يمكن أن يؤدى أى جهد نبذله للتحرر من الخضوع لهما إلا إثبات هذا الخضوع وتأكيده... ويعترف مبدأ المنفعة بهذا الخضوع، ويفترضه أساسا لهذا المذهب الذى يهدف إلى تكوين السعادة بأيدى العقل والقانون... ذلك المبدأ – المنفعة – الذى يتوقف فيه استحسان أى فعل أو استهجانه على ما يبدو لهذا الفعل من اتجاه إلى زيادة أو نقص سعادة الطرف الذى يكون الفعل متعلقا بمصلحته). كان بنتام يرى أن هذا المبدأ هو الوسيلة التى يختار الناس قرارتهم على أساسها، لذا يجب أن يكون هو المعيار للأخلاق والتشريع، حتى لا يخضع المجتمع لحكم معيار تجريدى لا صلة له بسعادة الإنسان، فالمبدأ التجريدى غير النفعى هو أداة من أفضل أدوات الطغيان، فهو يفيد فى إقناع الضحايا بأن طاعتهم للمستبدين بهم ليست ضرورية فحسب بل هى واجبة عليهم.

obeikandl.com

نظريـــة الواجـــب

ظهر مع المذهب الرواقى قرب نهاية عصر الحضارة الإغريقية، تحويل اتجاه المبحث الأخلاقى من الخير إلى الواجب حيث تكون الفضيلة والحياة الصالحة فى طاعة القانون لا مراعاة لقواعد العلة والمعلول. كان هذا المبدأ هو أساس العملية الأخلاقية فى الثقافة الغربية المسيحية خلال سبعة عشر قرنا بعد الميلاد قبل ميلاد فلسفة الشك وثورة العقل، حيث تقوم الحياة الأخلاقية على طاعة القانون الإلهى وليس على قانون نابع من العقل البشرى. فى القانون الإلهى يجب ألا نبحث فى أنه معقول أو لامعقول، قانون منطقى أو تعسفى، عادل أو ظالم، فيه سعادة أو شقاء، ولكن هو قانون صادر من الإرادة الإلهية، لذا فالمطلوب منا أن نطيعه كما هو، دون أن يكون لنا رأى فيه.

وجاء القرن الثامن عشر، وبدأ العقل فى التحرر من أفكاره العتيقة ورأى المفكرون المحدثون فى أوروبا أنه من الممكن الوصول إلى الواجبات الملزمة بواسطة النور الطبيعى للعقل، دون النور الصادر من الغيبيات. كان الفيلسوف الألمانى إيمانويل كانت من أقوى المدافعين عن نظرية الواجب، فكان يرى أنه لا توجد علاقة بين الأخلاقية وبين نظرية الميل الطبيعى للإنسان الذى تتغير ميوله من يوم لآخر. كتب كانت فى "تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق": (إن مساعدة الآخرين حين يستطيع المرء واجب، وهناك إلى جانب ذلك نفوس كثيرة لديها من النزوع إلى التعاطف ما يجعلها – دون أى دافع آخر من الغرور – تجد لذة باطنة فى نشر السعادة من حولها، وتغتبط لرضا الآخرين مثلما تغتبط لرضائها الخاص، ومع ذلك فإنى أذهب إلى أن أى فعل من هذا النوع – مهما كان قويما محببا إلى النفوس – ليست له مع ذلك قيمة أخلاقية أصلية، فهو يقف على قدم المساواة مع الميول الأخرى كالميل إلى التكريم مثلا). بمعنى آخر فإن كانت – كما كتب هنتر ميد – يرى أن الإنسان لا يحصل على امتياز من السماء جزاء على أفعاله الصالحة، نظرا إلى كونها نافعة، أو لأن دوافع الشفقة أو التعاطف أو الحب تحث على

أدائها، ولكن إذا أديت نفس هذه الأفعال بدافع الواجب البحت، فعندئذ تصبح أفعالا أخلاقية تستحق الاحترام والتبجيل.

تحقيـق الـــذات

يرى مذهب تحقيق الذات Self Realization، أو تأكيد الذات Self Assertion، إن الخير الأسمى فى تحقيق الشخصية أو الذات، أى التحقيق الكامل لكل قدرات الفرد، وتحويلها إلى حيز الفعل. يؤكد هذا المذهب على عدم تفضيل قيمة على أخرى، فالهدف هو التحقيق الكامل لكل القدرات البشرية دون التركيز على نوع واحد من القدرات. لما كان من الصعب على الإنسان تحقيق جميع قدراته على مدى عمره القصير – نسبيا – فإن الإنسان يعود – مضطرا – للمفاضلة، لاختيار القيم التى يجب أن تحقق أولا، وأى القدرات التى يجب أن نبدأ فى تنميتها. يعترض البعض على هذا المذهب بقولهم أنه مذهب يدعو إلى الأنانية، لأن تركيزه ينصب على الذات، كما قد يذهب الناس إلى تحقيق أنفسهم بطرق سلبية تعمل ضد المجتمع. كان رد أنصار هذا المذهب هو أن الإنسان – بطبعه – كائن اجتماعى، ولا يستطيع تحقيق أكبر قدر من إمكاناته إلا من خلال علاقاته الاجتماعية، ومن الفائدة المتبادلة بين الفرد والمجتمع.

يقوم الإنسان من خلال الشعور واللاشعور بتقييم ذاته، وهى عملية استبطان ذاتى يمارسها الفرد إزاء علاقاته بنفسه وتكوين الصورة الصحيحة لذاته من أجل تقييم مكانته وقيمته ودوره فى المنظومة البشرية / الكونية، ومن أجل الحكم على كفاءة أجهزته النفسية فى مواجهة متطلبات الذات وتفاعلها مع الواقع. يقوم الإنسان بهذه العملية للوصول إلى تحقيق التوافق النفسى بهدف النجاح فى اتخاذ القرار والسلوك المفروض فى التجارب التى يمر بها، فيحصل على أكبر فائدة ويتجنب الضرر الذى قد يتعرض له.

obeikandl.com

السعـــادة

هل السعادة هى الخير الأسمى للإنسان....؟

اختصر الفيلسوف الإغريقى أرسطو فلسفته فى مفهوم مذهب السعادة Eduaimonism فى الكلمات القليلة التالية: السعادة هى فى أساسها مصاحبة للأداء الصحيح للوظيفة Function، أى ناتج ثانوى لتنمية جميع الوظائف التى يحيا من خلالها الإنسان، فالسعادة تنوج الأداء الصحيح للوظيفة. فى هذا الفكر، يستطيع الإنسان أن يصل إلى أقصى سعادة عن طريق التمتع بالعقل بوصفه غاية فى ذاتها، أى التفكير من أجل التفكير وليس من أجل تحقيق غاية أخرى، فالنشاط العقلى يمثل أكمل نمو لوظيفة الإنسان الفريدة والمميزة بين الكائنات الحية.

إذا نحينا الفلسفة الأرستقراطية المترفعة التى نادى بها أرسطو من قديم الزمان، وعدنا إلى عالمنا الواقعى الحديث التى امتزجت فيه المادة بالقيم، فإن مفهوم السعادة سيختلف فى هذا العصر الذى أصبح فيه الحصول على المادة لمجابهة متطلبات الحياة هو الشغل الشاغل للإنسان.

يختلف مفهوم السعادة من فرد لآخر تبعا لميولـه وتكوينه، فهى عند البعض الرضا والقناعة، وعند الآخر إشباع الاحتياجات والرغبات والاستمتاع بالحياة أو اللذة بأنواعها المختلفة. يعتبر الرضا العام هو العامل السائد فى الشعور بالسعادة، ويتمثل الرضا فى جوانب الحياة المختلفة من دراسة وعمل وزواج وصحة وتحقيق ذات. أيضا يمكن تعريف الإنسان السعيد بأنه المتفائل غير المكتئب الذى لا يصل القلق لديه إلى الدرجة الحرجة التى تخرج الإنسان من مرحلة الاهتمام والكفاح إلى مرحلة الاكتئاب والتعاسة والسلبية.

obeikandl.com

والسعادة ليست نقيض للتعاسة، وإن كانا لا يتلاقيان معا فى نفس الوقت، فيوجد بعض الاحتياجات التى لو حرم منها الإنسان يصبح تعيسا وإذا تم الحصول عليها وإشباعها لا يكون سعيدا، وأيضا توجد بعد المصادر المسببة للسعادة، ولكن الحرمان منها لا يسبب التعاسة. إن الخلافات الزوجية تصيب الزوجين بالشقاء والتعاسة، ولكن الزيجة العادية قد لا تجعل الإنسان سعيدا. والإنسان لا يشعر بالسعادة من عامل الصحة، ولكنه يكتئب إذا مرض. والرياضة من مصادر السعادة، ولكن عدم إشباعها لاتصل بالإنسان إلى حالة التعاسة.

قامت بعض الدراسات النفسية بحصر أسباب السعادة، وتحليل ارتباطها بعوامل مختلفة، فخلصت هذه الدراسات إلى عوامل ستة رئيسية لها أكثر من أثر مهم وملموس فى تحقيق السعادة، وهى: الصحة / النشاط، الشخصية / الذكاء، الحياة الأسرية من شريك متعاون ومتفاهم وأطفال أصحاء وناجحين، الحالة الاقتصادية من دخل مادى وسكن ووسائل انتقال، العمل المناسب والدرجة الوظيفية، وأخيرا ملء وقت الفراغ والنشاط الاجتماعى والرياضى والترفيهى. وبتحليل العوامل الأخرى المسببة للسعادة وجد أن الصحة على قائمة هذه العوامل، فالصحة تؤثر على العوامل الأخرى المسببة للسعادة، فالمعتل صحيا لا يستطيع أن يمارس العمل أو يشارك فى الأنشطة الاجتماعية أو الرياضية بصورة كاملة، وقد يؤثر المرض سلبيا على دخل الأسرة. إذا كانت الصحة تسبب السعادة، فمن جهة أخرى فإن السعادة تسبب الصحة، فالتعاسة والاكتئاب تصيب الإنسان بأمراض نفسية عديدة، تبدأ بالقلق وتنتهى بالأزمات القلبية والدماغية، وغالبا ما تسبب الحالة النفسية السيئة أمراضا عضوية أخرى. إن الاكتئاب هو الوجه الآخر للسعادة يتمثل فى الإحساس بعدم التركيز، وكذلك التعب والملل والأرق، ويصل فى حالته المرتفعة إلى التوتر والحزن والغضب والقلق الشديد، وقد ينتهى إلى الانهيار العصبى والاضطراب العقلى.

ينبع الشعور بالرضا والسعادة من ثلاثة مصادر رئيسية تدعمه وتشحنه ليظل قائما ومستمرا، وهذه المصادر هى الدعم المادى، والدعم الانفعالى والمشاركة فى الاهتمامات. ويحصل الإنسان على هذا الدعم من الأسرة أولا، ثم الأقارب فالأصدقاء، وينتهى بزملاء العمل والجيران. والأسرة المتفاهمة والمستقرة، أكثر سعادة من الأسرة المفككة غير المتفاهمة. وتدل المرونة فى المعاملة بين أعضاء الأسرة على الذكاء الاجتماعى الذى يصل بالأسرة إلى حالة التفاهم والاستقرار، بعيدا عن مجال الصراع واستقلال الذات، فالأسرة هى شركة بين جميع الأفراد قد يدفعونها إلى النجاح أو إلى الفشل والتفسخ. والعلاقات الأسرية الدافئة تنشر الحب بين الأطفال والأهل والمجتمع المحيط، ليعيش الجميع فى ترابط وتراحم ومودة وسعادة.

ليس كل إنسان يعمل راضيا عن عمله، ولكن بصفة عامة فإن العمل أفضل من البطالة والعيش بدون عمل. قد يجد بعض الناس العمل مشبعا لأهوائهم ومثيرا لاهتماماتهم، أو أنه جانب رئيسى فى حياتهم إذا كانت الأنشطة الأخرى الاجتماعية والرياضية والترفيهية غير متوافرة. بالإضافة إلى ذلك فإن العمل من الأسباب المباشرة للسعادة حيث إن عمل الفرد يفرض على المجتمع المكانة الاجتماعية التى يوضع فيها. إن معايشة إنجاز العمل وتحقيق الهدف هو الباعث الرئيسى للسرور والحبور، والشعور بالزهو والرضا والإشباع الداخلى، فالنجاح يولد متعة كبيرة ودافعا قويا لبذل مزيد من المجهود والإتقان ومحاسبة النفس من أجل الوصول إلى الأفضل. وفى العمل يستمتع الفرد أيضا بحياة اجتماعية مختلفة يمكن أن تخفف من الضغوط النفسية التى قد يعيشها خارج مكان عمله، كما أن العمل يحد من الملل والفراغ الذى يعيشه الإنسان إذا كان لا يعمل. وأخيرا فإن العمل هو المصدر المهم والرئيسى لدخل الفرد، الذى يؤثر على الحالة الاقتصادية وتبعاتها.

وفى مجال الأنشطة الاجتماعية والترفيهية والرياضية وملء وقت الفراغ، فبدون شك إذا حيدنا العوامل الأخرى فإن الإنسان الاجتماعى الرياضى الذى لديه عدد كثير من الأصدقاء ويستطيع أن يستمتع بمباهج الحياة ولذاتها، هو أكثر سعادة من غيره. إن لهذا العامل تأثيرا كبيرا نسبيا وأهمية فى مرحلة الشباب وفى مرحلة منتصف العمر، وتتراجع أهمية هذا العامل بمرور الوقت – عند بعض الناس – خصوصا بعد الزواج ليحل محله فى الأهمية أنشطة أخرى مثل إدارة شئون الأسرة وتربية الأطفال، حيث تتحول الصداقة فى الغالب إلى اجتماعات ومناسبات أسرية. إن احتياج الفرد للأصدقاء يتلخص فى المساعدة العملية والمعلوماتية التى يوفرها الصديق، وفى الدعم النفسى من تعاطف ومشاركة فى الأنشطة الترفيهية والرياضية والاجتماعية. إن حب الاجتماع غريزة إنسانية وإن اختلفت قوتها من فرد لآخر، ويقوم الإنسان بإشباعها عن طريق شبكة من العلاقات قد تكون سلبية، أو إيجابية مثمرة تعود بالفائدة على جميع الأطراف دون استغلال أو تجن.

أحدث التطور التكنولوجى فراغًا ملموسًا للإنسان الحديث، هو أساس حالة الكآبة والملل التى تعتريه فى الزمن الحالى والتى عبر عنها الفيلسوف الألمانى شوبنهاور فى قولـه: إن الإنسانية قد حكم عليها أن تتأرجح بين طرفين أحدهما الضيق وثانيهما الملل. إن الإنسان السعيد هو الذى يستطيع أن يكسر حدة الملل بتنوع جميع الأنشطة الحياتية من عمل، وترفيه، وأنشطة اجتماعية، ورياضية، وثقافية، بشكل متوازن ومتناغم.

الحقيقـــــة

إذا كان المقصود بالحقيقة هو الفهم الفردى أو المنظور الذاتى، فسيكون الاختلاف أكثر من الائتلاف. قد يتطابق رأيان فى وجود شخص فى الحجرة المجاورة – إذا كان فعلا موجودًا – ولكن سيحدث اختلاف إذا تردد قولان بأن

الشمس تسطع كل يوم، وكان صاحب أحد القولين يعيش فى فصل الشتاء فى القطب الشمالى حيث قد لا يرى الشمس لعدة شهور. إذا كان التطابق Correspondence فيه شىء من الحقيقة، فمازال يوجد احتمال خطأ الجميع، وكلما كان التعمق فى الوصف والتحليل، كلما اتسع البون وصغر احتمال التطابق. إن شيوع قول " الموت هو الحقيقة الوحيدة "، فيه بعد عن الحقيقة إذا سلمنا بأن الحياة ستمتد إلى جنات النعيم أو إلى ويلات الجحيم، بعكس إذا كان مفهومنا للموت هو النهاية وليس انتقالاً من حالة إلى أخرى.

قد تختلف أفكار وآراء الفلاسفة والعلماء والمفكرين، ولكنها جميعا تنطق بشىء من الحقيقة. وقد تتصارع المذاهب والمدارس الفكرية، ويتساءل الجميع: أين تكمن الحقيقة...؟ ومن منظور فلسفى بحت، تكمن (الحقيقة المطلقة / الحقيقة الكاملة) فى مجموع شذرات الحقائق المتناثرة فى كل مكان وفى كل زمان من بداية الخلق وحتى نهايته. ومن منظور آخر: ذهب الفيلسوف الإغريقى بيرون الأيلى إلى أن الحقيقة لا يستطيع أحد إدراكها والعلم بها، وعليه فمن الأفضل التوقف عن الحكم على أى شىء من الأشياء. يدفعنا البحث عن الحقيقة إلى الخروج من التقوقع داخل الذات، فالانفتاح على الطبيعة وعلى الآخرين والتلاقى معهم، كلها وسائل للوصول إلى هدف الحقيقة. إن الحقيقة ليست ملكا لفرد، ولكن نحن جميعا كبشر ملك شىء غامض وغير معلوم يسمى الحقيقة.

بخلاف الحياة المادية / الملموسة التى نعيشها، فإذا اتجهنا إلى الغيبيات أى ما وراء الطبيعة Metaphysics، فكل شىء – بالنسبة لصاحب مذهب الشك – قابل للاحتمال، فى الخطأ أو الصواب، أو التشابه والاقتراب من المعنى. تبدو الأساطير والمعجزات مناقضة للعلم الحديث، ولكن ما زال الكثير من البشر يعتقد فيها ويقتنع بها. بعيدا عن الهلوسة والأمراض النفسية، يختلف الإدراك من فرد إلى آخر،

وتدخل المؤثرات السمعية والبصرية مع الشخصية الفردية بتجاربها الفريدة والمميزة كعوامل نفسية لاستيعاب المدلول، وتصور شيء قد يكون حقيقة، أو قد يكون وهمًا وخيالاً. يمر التفسير الذهنى بشبكة معلومات هائلة يمر به الفرد خلال رحلته الحياتية. لذا يختلف الشرح فى تفسير نفس الشيء، وتظل الحقيقة فى نسبية النظرة للشيء والإدراك، والذهن المرتبط بتجاربه.

يعرف علماء الهلوسة Hallucination بأنها مدركات حسية لا وجود لها فى الواقع الخارجى / الحقيقى، فالهلوسة حالة من أحاسيس ليست واردة من منبهات حقيقية، فقد يرى الفرد شبحا غير موجود بالفعل، أو يسمع أصواتا صادرة من أفراد يتكلمون ولكنهم غير موجودين. تعتبر الهلوسة من الأعراض المرضية، يعتقد صاحبها فى حقيقة ما يراه، وصحة ما يسمعه. أما الهذاء Delusion، فهو مرض آخر من الأمراض النفسية، عرفه الدكتور فرج طه فى موسوعة علم النفس والتحليل النفسى بأنه: (أفكار شاذة وغير منطقية توجد لدى المريض ويعتقد فى صحتها ويستحيل إقناعه ببطلانها...، والأفكار الهذائية التى يعتنقها المريض بالهذاء فهى كثيرة لا يشملها حصر، وإن كان يمكن تصنيفها فى فئات رئيسية وشائعة وهى: هذاء العظمة وهذاء الاضطهاد، وهذاء الغيرة). نوه المرجع السابق عن أنواع أخرى من الهذاء مثل هذاء الإثم حيث يعتقد الفرد بأنه آثم ومرتكب لخطايا لا تغتفر، ويستحق عنها أقصى عقاب، على أنه فى الحقيقة لم يرتكب ما يدعيه من إثم أو خطيئة، أو ارتكب خطأ صغيرًا لا يستحق تأنيب الضمير. أما هذاء الإشارة فهو نوع آخر يعتقد فيه المريض أن أقوال الآخرين وأفعالهم لها غرض خبيث موجه إليه، وأنه المقصود بها للإضرار به أو تجريح صورته أمام الآخرين والاستهزاء به. يختلف الهذيان Delirium عن الهذاء، فهو حالة تعنى الاضطراب فى عملية الإدراك والتفكير، وتصاحب غالبًا الحالات المرضية العضوية التى تصيب المخ أو الارتفاع الشديد فى درجة حرارة الجسم.

الإنسان ـ كما قال أفلاطون ـ أسير لجسمه وأجهزته الحسية، لذا اتجه بعض البشر فى عدم الثقة بالحواس بوصفها مصادر للمعرفة ووسائل لكشف الحقيقة، فإحساساتنا ليست بالضرورة لها علاقة بالواقع الكائن، والحقيقة المطلقة / المجهولة. تفيد نظرية الترابط Coherence فى أن العبارة أو القضية المطروحة، تكون صحيحة – فقط – إذا كانت تتوافق مع حقائق أخرى مقررة، ويجيئ مجال الرياضيات والهندسة كمثال لربط القضية مع نظرية رياضية / هندسية معترف بها ومحققة. ولكن حتى المعادلات الرياضية الكلاسيكية قد فندها العلم الحديث، فنظريات نيوتن فى الحركة، أصبحت من خلال نظرية إينشتين فى النسبية، لا تصلح للتطبيق فى السرعات الكبيرة التى تقترب من سرعة الضوء. إن هذه النظرية تقودنا – فقط – إلى الاتساق المنطقى Logical Consistency، ولكن تظل الحقيقة فى ظل المجهول.

حيث إن المصدر الرئيسى للبراجماتية هو البحث العلمى، فإنها لا ترى أن هناك شيئا يمكن تسميته بالحقيقة المطلقة، بوصفها كيانًا له وجود مستقل بذاته. الحقيقة فى البراجماتية شيء يصنعه الإنسان بذاته، فهو يصيغ أحكاما فى جميع المجالات، ويضع قيما فى شتى النواحى الحياتية، لأنه يحتاج إلى معايير تساعده فى تسيير أموره، وتسانده فى تعامله مع التجارب التى يمر بها. لا تصبح الأحكام حقائق، ولا تصبح القيم صائبة إلا بعد التطبيق وملاحظة النتائج. كتب هنتر ميد فى كتاب "الفلسفة – أنواعها ومشكلاتها" عن المفهوم البراجماتى للحقيقة: (أهم ما تقول به هذه النظرية هو أن معيار الحقيقة الوحيد الذى له دلالة هو معيار النجاح العملى Workability أى الثمار التى تحملها والنتائج التى تؤدى إليها. وهكذا تكون العبارة صحيحة فى نظر البراجماتى إذا كانت تعبر عن واقع أو تصف موقفا نستطيع أن نسلك على أساسه ونحقق النتائج المتوقعة). ذهبت البراجماتية إلى أنه

فى حالة فشل الاختيار بين عبارتين على أساس الأدلة التجريبية، أو القيمة النقدية Cash Value للنتائج المباشرة، فإنه يمكن تحديد صحة القضية على أساس مقدار ما يمكن أن تسهم به فى قيم الحياة. سرد المرجع السابق مثالا شارحا لوجهة نظر البراجماتية، فحين يجب أن نقرر ما هى العبارة الصحيحة من بين عبارتين متناقضتين، مثل "النفس الخالدة" أو"النفس الفانية"، فإن التطبيق المعملى / العملى لن يفيدنا فى هذه الحالة، ولكن يجب أن يتجه الاختيار إلى "النفس خالدة"، لأنها تفيد عامة البشر الذين يؤمنون بوجوب عدم الوقوع فى الخطأ خوفا من حساب الآخرة. وفى النهاية ترى البراجماتية: (لا يحق لنا أن نسمح لسعادتنا الروحية وحاجاتنا العاطفية بأن تتحكم فى اختيارنا للحقيقة إلا عندما يستحيل تطبيق المعايير الأخرى، أو عندما نعجز عن اتخاذ القرار).

اعتبر الفيلسوف الأمريكى ورائد الفلسفة البراجماتية وليام جيمس أن الحقيقة ما هى إلا منظور مستقبلى لا يسرى على الماضى: (إن حقيقة الشىء أو الفكرة فى معناه، أو فى مصيره، فى ذلك الذى ينمو منها وتفضى إليه. وهذا سيكون مذهبا يقلب عكسا رأى التجريبين بأن معنى الفكرة هو ذلك الذى نمت منه..... وما لم نجد طريقة للتوفيق بين فكرتى الحقيقة والتغير، فيجب علينا أن نقر أنه لا توجد حقيقة فى أى مكان. ولكن هذا التوفيق لابد أن يحدث بالضرورة على كل من يقرأ التاريخ ويسلم بأن مجموعة سابقة من الأفكار كانت فى سبيل التطور من أفكار، فى ضوئها ننبذها الآن... وطالما أنها أدت إلى تسبيب تلك، فقد كانت صحيحة تماما، كما أن هذه ستسبب غيرها ثم توضع هى نفسها على الرف. فحقيقتها تكمن فى وظيفتها فى استمرار التفكير فى اتجاه معين، ولو أنها انحرفت عن هذا الاتجاه لكانت باطلة... فإذا أخذت الحقيقة كمنظور مقبل، فيتعين تفسيرها بالقياس إلى الأغراض أو الغايات التى تتحكم فى التفكير).

يعتقد آخرون فى أن فى السلطة أو القوة تكمن الحقيقة، أو أن وراء الاتفاق الجماعى تسكن الحقيقة. تختلف السلطة من سلطة دينية / عقائدية، إلى سلطة بشرية ممثلة فى الملك أو الحاكم أو الزعيم. يتماشى كذلك كثيرا من البشر مع القيم والأحكام السائدة فى المجتمع مقتنعين بأنها تمثل المعايير السابق سردها، وهو المعيار الحدسى الباطنى، أو الإيمان بصدق السريرة الداخلية التى لا تعرف إلا الحقيقة، ولا تظهر إلا الحق والصواب. يعتبر الأخير نوعا من أنواع الصوفية التى يؤمن بها بعض الناس، أو يلتجأ إليها أحيانا بعض البشر، إذا عجزت قدراته عن الحسم، فالإنسان بطبعه الأنانى يكيف ذاته، ويحاول أن يكيف الآخرين لما فيه مصلحته الشخصية، حتى على حساب الحقيقة التى نتلاعب بها ولا نعيها، فكل إنسان يعيش فى عالم من الحقائق التى خلقها بنفسه، تريحه قبل أن تريح الآخرين.

الإيثـــــار

وتعنى كلمة الإيثار أو اللاأنانية Altruism تفضيل الغير على النفس، ووضع سعادة الآخرين فى الصدارة قبل السعى لإسعاد الذات. وتعتبر هذه القيمة من القيم الحسنة حتى حد معين، ثم تشير إلى دلالات مرضية إذا تجاوزت هذا الحد، لتصل الحالة إلى المازوكية Masochism أى تقبل الإنسان الإهانة والعدوان، والتعذيب من الغير. والإيثار هى قيمة محببة للآخر، ما دام أنانيا وسيستفيد من عدم أنانايتنا. ولكن بفرض أن جميع البشر غير أنانيين، ونذهب وراء المثل الشهير بتشبيه السعادة بالكرة، ولما كان الشخص غير أنانى فإنه سيناول الكرة – السعادة – إلى شخص آخر، وحيث إن الآخر غير أنانى أيضا فإنه سيتنازل عن سعادته إلى شخص ثالث، وهكذا لن يستفيد أحد من السعادة التى ستصبح قيمة منبوذة من الجميع.

من مبدأ الغريزة الاجتماعية فإن الإنسان يسعى إلى سعادة الآخرين، ولكن تظهر دوما سعادته فى المرتبة الأولى. الأنانية ليست شرا فى ذاتها، لأن الإنسان إذا عاش وحيدا دون مجتمع، فسوف تنصب اهتماماته وجهوده إلى شخص فقط وهو ذاته، ونتيجة لظهور المجتمع فى محيط الإنسان فقد بدأ فى استحداث مصطلح الأنانية وضدها اللاأنانية، عندما زاد الطلب وقل العرض، أو عندما طلب فرد مساعدة من آخر، وتبين للآخر أن هذه المساعدة قد تعود بالضرر لـه، فقرر الامتناع عن المساعدة. ومن هذه المواقف ظهرت قيم أخرى مرادفة مثل التضحية، والإيثار، والتعاون، والمساعدة، والتنازل للغير، والجود، والعطاء، والإحسان، وغيرها من المصطلحات التى نبغ فيها الفكر الإنسانى.

يمكن النظر إلى الأنانية من مدخل المنفعة المتبادلة، فبفرض وجود أنانى مقتدر يشعر باحتياجات الآخرين ورغباتهم، ولكنه لا يعتبر هذه الرغبات مطالب مفروضة عليه، إن هذا الشخص يرى الموقف من منظور صفقة سانحة قد تعود عليه بالنفع والفائدة، فيعرض تقديم المساعدة مقابل شىء بديل لدى الطرف الآخر. فى هذا الموقف لا يضحى الأول فى سبيل الآخر، وفى نفس الوقت لا يتوقع قيام الآخر بتضحية فى سبيله، ولكن سيتعامل مع الموقف كصفقة تجارية. هل يطلق على الأول أنانى إذا كان الآخر لديه شىء يمكن أن يقايض به؟... وهل يمكن اعتبار مجهود الفرد أى العمل اليدوى هو شىء مقابل، وإلى أى مدى يستطيع الآخر المقايضة بالمجهود، فإن فى أقصى المدى تكمن العبودية ويقبع الرق، وفيه يبيع الإنسان نفسه للآخر مقابل بعض المال، أو الحصول على استمرارية حياته إذا وقع فى الأسر كما كان يحدث فى الماضى.

الأنانيـــــة

تتعامل الأنانية Egoism كقيمة أو كمذهب فلسفى من منطلقين: الأول من منطلق علم النفس وفيه يسعى كل فرد إلى تحسين وضعه وتعزيز ذاته. يقوم الإنسان بالأعمال التى تعود عليه بالفائدة، وينتهج السلوك التى فيها مصلحته الشخصية. والثانى من المنطلق الأخلاقى حيث يتعين على كل فرد تطوير ذاته على الأفضل لتحقيق أهدافه. ينص مذهب الأنانية الأخلاقية Ethical Egoism على مبدأ: (مبرر أخلاقيا أن يتصرف الفرد فى ضوء مصالحه، وأنه كلما فعل الفرد هذا أكثر عاش حياة أفضل)، ويمكن أن تأخذ هذه المصالح شكل إشباع الرغبات والاحتياجات. وبالرغم من أن الكثير من أفعالنا قد تبدو مغلفة بالإيثار ومصلحة الآخرين، وأنها لا تخدم مصالحنا بصورة مباشرة، وهو الأمر الذى يتضمن نوعا من خداع النفس بصورة مقبولة ومحببة لنا لتجميل صورتنا أمام أنفسنا وأمام الآخرين. والأنانية عكس الإيثار Altruism أى حب الغير والعمل لمصلحة الآخرين. تتلازم الأنانية وتتوافق مع مذاهب أخرى عديدة مثل: مذهب المتعة ومذهب الفردية Individualism والتى تعتقد فى أن جميع القيم والحقوق والواجبات تنبثق من الإنسان كفرد، وأن مصالح الفرد يجب أن تكون فوق كل اعتبار.

أثار توماس هوبز فى القرن السابع عشر معضلة الصراع بين الأنانية والإيثار، ورفض هوبز فلسفة أفلاطون وأرسطو، وأفكار العقائد المسيحية التى تزعم بأن الخير الكامن فى الفرد يتطابق مع السعى لتحقيق الخير الأقصى للبشرية. ذهب هوبز فى فلسفته إلى أن السلوك الإنسانى يحركه المصلحة الشخصية، حتى الخير الظاهر للآخرين يكون وراءه فى الحقيقة مصلحة شخصية من فاعله، فالطبيعة البشرية قائمة على المصلحة الفردية وأنانية الذات. يتوافق

مذهب الأنانية مع مذهب الإيثار / حب الآخر، فى الرأى بأن الطبيعة البشرية تحوى كل من الأنانية والإيثار، وأن على الإنسان أن يسعى لتدعيم حب الآخر مع قبول مبدأ الأنانية. قام هنرى سيدجويك فى القرن التاسع عشر بمحاولة لتحليل موضوع القيم الأخلاقية وجادل فى أن كل من الأنانية والإيثار كائنين فى الذات البشرية، ولا يمكن التوفيق وتسوية الصراع بينهما إلا عن طريق العقيدة الدينية.

الحرية والديمقراطية

لن يستطيع الإنسان أن يعيش فى حرية كاملة ما دام يعيش فى مجتمع، فحرية الفرد قد تتعارض مع حرية الآخرين، حتى لو عاش الإنسان وحيدا، فالطبيعة لن تسمح له أن يحيا فى حرية مطلقة. ان الإنسان مقيد بالطبيعة كما هو مقيد بالآخرين، ولا معنى للحرية المطلقة إلا للخالق. إذا استبعدنا مبدأ الحتمية، فقد يتمتع الإنسان بحرية مطلقة لأفكاره داخل عقله، ولكن إذا تحررت هذه الأفكار من زمام العقل، فالذهن والجسد يتحملان نتيجة هذه الأفكار من عقاب أو ثواب. تظهر مشكلة حدود الحرية الفردية لدى المجتمعات أو الشعوب التى تتطلع إلى حرية حضارية حيث تلزم الفرد التمتع بحريته داخل إطار من القيود، بحيث يعيش المجتمع ككل فى سعادة، فالفائدة المرجوة هى فائدة الجماعة بحيث إذا خرج الفرد عن الجماعة وعاش وحيدا فى إطار أوسع من الحرية، فإنه سوف يعيش منعزلا ولن يتمتع بمزايا المجتمع من أمان وعزوة وقوة، ومزايا اجتماعية ونفسية واقتصادية أخرى مثل التكافل والصحبة والحصول على احتياجاته وشهواته، ويمكن له إثبات ذاته الفردية من خلال الصراع والمنافسة.

كان جون ستيورات مل من أوائل الذين كتبوا عن الحرية فى العصر الحديث، فكانت الحرية فى رأى مل كما جاء فى كتابه " الحرية ": (الإنسان غير مسئول أمام المجتمع عن شىء من تصرفاته إلا ما كان منها ذا مساس بالغير).

رفض الفيلسوف الفرنسى جان جاك روسو فى منتصف القرن الثامن عشر النظم الاستبدادية التى تفرض على البشر أن يكونوا عبيدا للحاكم المستبد، ونفى روسو أن يقوم الخضوع للحاكم على أساس الاتفاق، وكان منطقه أن الإنسان الذى يصبح عبدا لآخر لا يعطى نفسه بل يبيعها من أجل قوته أو حياته. كان روسو يرى أن الإنسان الذى يتنازل عن حريته هو فى الواقع يتنازل عن إنسانيته، فلا يوجد مقابل يعادل التنازل عن حرية الفرد. وفى تعريف روسو للحرية: (لا تعتمد الحرية على أن يفعل الفرد ما يريد بإرادته الخاصة، والحرية دون العدالة هى تناقض حقيقى، فلا حرية بغير قوانين، ولا حرية عندما يكون الفرد فوق القانون).

سعى الفيلسوف الأمريكى جون ديوى نحو إعادة تفسير ديمقراطية القرن التاسع عشر من أجل أن تتجاوب مع المجتمع التكنولوجى فى القرن العشرين، فقد كان يرى الديمقراطية كأفضل وسيلة لتحقيق مشاركة كل إنسان ناضج فى تشكيل القيم التى تنظم عيش الناس سويا، وأن التشكيل عملية مستمرة لا تنتهى فى مسيرتها، وأن أساس الديمقراطية هو الإيمان بقدرات الطبيعة البشرية وبقوة التجربة المكتسبة من تعاون الأفراد والتى تستمر باستمرار المنظومة البشرية.

إذا كانت الإرادة Volition/Well هى قدرة نفسية تمكن الفرد من الاختيار وأخذ القرار بطريقة واعية، لا تنحاز لأى ضغط خارجى أو إلحاح الغير، فإن قوة الإرادة تأتى من حرية القبول والرفض، والقدرة على الإنجاز، والتوافق بين الأنا والهو بحيث لا يكون للضمير تأثير سلبى معوق. فالضمير هو الذى يثيب الشخصية بالراحة النفسية إن هى تصرفت وفق القواعد الأخلاقية واتبعت القيم السائدة، وكذلك يعاقبها بالتأنيب والتكدير الداخلى إن هى خرقت أو تناءت عن القيم الأخلاقية.

ظهر مذهب الشك مع بزوغ الحضارة الغربية الحديثة فى القرن السابع عشر من خلال الفلاسفة الشكاكون أمثال ديكارت، وهوبز، وسبينوزا، وفولتير

وهيوم، وكانط ونيتشه. تعنى الدنيوية Secularism عدم المبالاة بالدين أو بالاعتبارات الدينية، وهو نظام فلسفى / أخلاقى يفصل ما بين الدين والنظام المدنى، ومنه خرجت العلمانية كمذهب فلسفى / اجتماعى، وكنظام أخلاقى يفصل المبادئ والقيم الأخلاقية عن ما أنزلته الديانات السماوية، فالأخلاق والقيم فى هذا المذهب يجب أن تنبع من طبيعة الإنسان، وثقافته التى قد تتغير بتغير المكان والزمان. أما كمذهب فلسفى فقد أظهره جورج هوليوك فى إنجلترا حول عام ١٨٤٦. كان أول مسلمات هذا المذهب، هو حرية الإنسان فى التفكير من أجل مصلحته الشخصية، وعليه يظهر الاختلاف فى الآراء والأفكار لنفس الموضوع، طالما تباينت الشخصية الفردية، واختلفت المذاهب والمدارس الفكرية. يعطى هذا المذهب الحق لأى إنسان أن يتساءل فى كل المواضيع التى كانت محرمة فى الثقافة الغربية فى ذلك الوقت من حقيقة وجود الإله، والالتزامات الأخلاقية، والفسق والفجور والأعمال اللاأخلاقية، وسلطة الضمير. لا ينكر هذا المذهب القيم الأخلاقية، كما لا ينكر وجود الرب، ولكن أعطى مساحة واسعة وكاملة للحديث بحرية عن جميع المواضيع التى تتعلق بالإنسان، متضمنا الغيبيات، وكل ما يتعلق بالآلهة، والروح، والجسد، والقيم، فالإنسان يجب أن يعلن أفكاره بحرية، ويدافع عن ذاته بدون أن يتعرض لأذى أو ضرر من الآخرين.

أما بالنسبة للديمقراطية فهى تعنى " حكم الشعب "، وهى كلمة يونانية قديمة تتكون من مقطعين، الأول ديموس Demos بمعنى الشعب، والثانى Crat بمعنى حكم. إذا كانت الديمقراطية قد نبعت من الثقافة الإغريقية، فقد ظهرت مرة ثانية فى الثقافة الغربية الحديثة فى القرن الثامن عشر متزامنة مع عصر العلم والحرية وثورة العقل ضد الجهل والتخلف. فى المجتمع الديمقراطى تمارس الديمقراطية من خلال الدستور، والمجالس النيابية المنتخبة، ويكون لأعضاء

المجتمع الحق فى حرية التعبير كأداة رئيسية لاكتشاف ونشر الحقائق. فى هذا المجتمع يتكلم الفرد كما يفكر فيشعر بذاته الفردية، ويصبح الكلام وسيلة للمشاركة فى مناقشة قضايا المجتمع: السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية،... وخلافه. تؤدى الديمقراطية إلى حرية التعبير " كقيمة " إلى سلوك نابع من تحقيق الذات وحق الفرد فى المشاركة فى الحكم، وفى المناقشة والمجادلة بأسلوب سلمى وعقلانى، بعكس المجتمع الديكتاتورى القائم على القمع والكبت حيث يمارس الحاكم السلطة منفردا أو من خلال معاونيه، ولا يسمح للفرد بالتعبير عن آرائه وأفكاره، أو الاعتراض على قراراته.

التكيف والملائمة

يعيش الكائن الحى فى محاولات مستمرة ليوائم بين نفسه والعالم الطبيعى الذى يعيش فيه، وذلك من أجل البقاء والاستمرار فى منظومة فرضت عليه. إن كثيرا من سلوك الإنسان ردود أفعال لمطالب وظروف بيئية، فقد يخفف من ملابسه عند ارتفاع درجة حرارة الجو، بينما يتدثر فى ملابس ثقيلة فى أيام الصقيع، يتصرف الإنسان وفقا للظروف البيئية فى الأمور الحياتية الأخرى مثل المسكن، والمأكل، وغيرها. وكما يتلاءم الإنسان مع البيئة الطبيعية، يستطيع أن يتكيف مع الظروف الاجتماعية والنفسية التى تحيط به والتى تتطلب منه باستمرار تغيير سلوكه، وأسلوبه فى تناول الأمور والمشاكل التى يتعرض لها فى مسيرته الحياتية. إن ظروف الحياة تدفع الإنسان دوما إلى هذا التكيف، ويساعده على ذلك ما لدى الفرد من قدرة على التطبيع الاجتماعى، والذكاء الفطرى والمكتسب. إن كل مرحلة من مراحل النمو الطبيعى للإنسان تتطلب أن يقوم بأدوار اجتماعية ونفسية معينة، فالأدوار التى يقوم بها الفرد فى مرحلة الطفولة تختلف عن الأدوار التى يقوم بها وهو شاب يافع، أو إنسان بالغ الرشد والنضوج. إن التطور الطبيعى للإنسان يتطلب منه أن يزيد من قدراته على التوافق الاجتماعى وتعديل سلوكه.

إن التكيف فى علم النفس هو تلك العملية الديناميكية – التغيير المستمر – والذى يؤدى إلى تغيير السلوك، للوصول إلى علاقة أكثر توافقا بين الفرد، وبيئته، وتكوين علاقة سوية ومُرضية بينه وبين أفراد المجتمع. تشمل البيئة كل المؤثرات والإمكانيات، والقوى المحيطة بالفرد، والتى يمكنها أن تؤثر على سلوكه وأفعاله للحصول على الاستقرار البدنى والنفسى. وللبيئة – فى هذا المجال – ثلاثة أوجه: البيئة الطبيعية والمادية، والبيئة الاجتماعية، وأخيرا الفرد كذات منفردة ومختلفة عن الآخرين، فى شخصيته، وميوله، وقدراته، والبيئة الطبيعية هى كل ما يحيط الفرد من أشياء مادية، فالمواد الذى يستعملها، والمكون الجغرافى والمناخى من جبال وسهول وتضاريس، وحرارة الجو والرطوبة وغيرها، كلها عوامل تؤثر على نمو الإنسان وسلوكه وقدراته على التوافق والملائمة. أما البيئة الاجتماعية والثقافية فهى عبارة عن المجتمع الذى يعيش فيه الإنسان بأفراده وعاداته وقوانينه، وثقافته عامة، والتى تنظم العلاقات بين الأفراد والمجموعات والمؤسسات، والدولة. إن هذه العلاقات وإن كانت يجب أن تقوم على التعاون، إلا أن التنافس والتناحر يحدثان فى كثير من الأحيان، وإن كانت المحبة يجب أن تسود، فإن التنابذ والحقد والغيرة والحسد، كلها شعور سلبى يعيش فيه الإنسان. إذا كان الإنسان مرهون بوجوده فى مجتمع، فلابد أن يتفاعل معه، يعطيه ويأخذ منه، يفيد ويستفاد منه، يدافع عنه وينتظر من المجتمع أن يدافع عنه، فالتضامن والتكافل والحس العام والمهام المشتركة والمسئوليات العامة، والثقافة العامة، كلها من أساسيات النظام الاجتماعى. وأخيرا تجىء البيئة النفسية للفرد، وكيف يستطيع أن يسوسها ويسيطر عليها، ويتحكم فى مطالبها. ان مفهوم الذات يلعب دورا مهما فى توجيه سلوك الفرد حتى يتعايش مع المجتمع، والذات هى نظرة الفرد إلى نفسه باعتبار أنه مصدر الفعل. وتتكون الذات من مجموع إدراكات الفرد لنفسه وتقييمه

لها، وكذلك تتكون من خبرات إدراكية وانفعالية تتركز حول الفرد باعتبار أنه مصدر للخبرة وللسلوك. تختلف الذات عن " الأنا " التى هى مجموع الوظائف النفسية التى تتحكم فى السلوك والتكيف، بينما الذات هى فكرة الشخص عن هذه الوظائف وتقييمه لها واتجاهه نحوها. فإذا كانت الأنا هى التى تمنع الفرد من الانغماس فى الموبقات، فإن الذات هى التى تشكل مفهوم هذه الموبقات، وتقييم قدرة الفرد فى عملية التحكم، وبالرغم من ذلك فكل منهما – الذات والأنا – متلازمان فى المنظومة التى تشكل الجهازين النفسى والاجتماعى للإنسان.

يلبس كل إنسان نظارة – مختلفة فى الشكل ولون العدسات وقوتها... إلى آخره – يرى بها الذات كما يرى بها العالم الخارجى، ونعنى بكلمة "النظارة" الصورة الذهنية التى يكونها الشخص والتى تختلف عن حقيقة الشىء المرئى، أو حقيقة الحدث الواقع، ومن منطلق اختلاف الصور الذهنية جاءت النسبية فى الإدراك والمفهوم والتقييم، والسلوك الذى يختلف من شخص لآخر حتى لو تواجدت نفس الظروف ونفس الملابسات. تتميز الصورة الذهنية التى يكونها الفرد عن نفسه بأنها ذات ثلاثة أبعاد، يختص أولها بالفكرة التى يأخذها الفرد عن قدراته وإمكانياته، فقد تكون لديه صورة عن ذاته كشخص له كيان أو قوى البنية أو أكفأ، وعلى العكس قد يكون لدى الفرد صورة سلبية عن نفسه مثل العجز والفشل وضعف الإمكانيات. أما البعد الثانى فى مفهوم الذات فيتعلق بفكرة الفرد عن علاقاته بغيره، فقد يرى فى نفس شخصا محبوبا أو منبوذا، وقد يرى فى عيون الآخرين نظرة الاحترام أو الاحتقار، وكلها صور ذهنية قد تكون حقيقية أو لا أساس لها من الصحة. أما البعد الثالث فهو نظرة الفرد إلى ذاته كما يجب أن تكون. إن كل فرد يتخيل نفسه فى أعماق ذاته، فتكون له مثله العليا، وقيمه، وأهدافه، ومستويات طموحه التى يرغب فى تحقيقها. يطلق على هذا البعد أيضا

مصطلح "الذات المثالية"، وكلما صغر الاختلاف بين الصورة الذهنية التى يكونها الشخص عن ذاته، وبين صورة الذات المثالية، كلما ازداد النضج النفسى، وأصبح من المحتمل للصورة المثالية أن تتحقق. فى هذه الحالة يمكن القول بأن الشخص متقبل لذاته، ولديه الثقة بنفسه وبقدراته، ولديه الشجاعة على مواجهة حدوده الفعلية والعيش فى نطاقها، والنظر إلى مستقبله وأهدافه نظرة واقعية.

يساعد النضج الاجتماعى والنفسى فى تطوير عملية التكيف لمواجهة مطالب الحياة، والصمود أمام صراعاتها، والقدرة على حل مشاكلها. إن الإنسان الناضج اجتماعيا هو الذى يدرك أن سعادته مرتبطة بسعادة غيره من الناس. أما النضج النفسى فيتمثل فى عدم تركيز الاهتمام حول الذات، فالفرد عضو فى الجماعة، يحيا بها ويتفاعل معها. لا يحتاج الإنسان الناضج إلى الاعتماد الكلى على الغير، ولكن يتعاون ويتوافق معهم، وهو لا يعطى لنفسه أية حقوق أو امتيازات خاصة، فأفراد المجتمع سواسية فى الحقوق، وفى الواجبات والالتزامات، فالفرد جزء من الكل، والعلاقة بين الأجزاء قائمة على الاعتماد المتبادل. يصف علماء النفس الإنسان الناضج بأنه الشخص الذى لا يتوقف عنده النمو، فهو فى حالة نضج مستمر، فالارتباط بالحياة – بمشاكلها وصعابها – تزيده قوة وارتباطا بالحياة. إن الشخص الناضج ليس هو الذى يعرف عددا كبيرا من الحقائق، وإنما هو الذى تساعده قدراته العقلية على تنمية معلوماته لاستخدامها بحكمة، كما تساعده قدراته الاجتماعية على التكيف مع مجتمعه، وتشكل قدراته النفسية الرضا، والسلام الداخلى وإعطاء الذات طاقة نفسية للتغلب على القلق والخوف والإحباط.

الجمـــــــال

إن الجمال هو أى صفة تجعل شيئا أو شكلا ممتعا لمن يتعرف عليه من خلال حواسه. إن الرائى أو السامع أو المتذوق، يحس بجمال الشيء لأنه يمتعه، وليس لأن الشيء فى ذاته جميل. وباختلاف الشخصيات أو التكوين النفسى للفرد تختلف القيم الجمالية. الفن هو إبداع الجمال، وهو التعبير عن الفكر أو الشعور فى صورة تبدو جميلة، أو جذابة لآخرين. قد تثير الصورة ، أو التمثال، أو الفاصل التمثيلى اجترارا ذكريًا، سعيدا كان أو تعيسا، ومن تفاعل الشخص – بشخصيته المنفردة والمميزة له عن غيره – مع الموقف يتكون الإحساس بالجمال.

يعرف الوعى الجمالى بأنه شعور بالقيم الجمالية، مستقل عن الأخلاق أو الاقتصاد أو العقيدة أو السياسة أو النزعة التعليمية، أو أى ارتباط من الارتباطات المألوفة. تقسم القيم الجمالية الناتجة عن الاستجابات المختلفة إلى ثلاثة أقسام، يؤدى كل منها إلى استجابة من نوع خاص لدى المشاهد أو المستمع:

- القيم الحسية: وهى التى تنشأ عن إدراك ألوان أو أشكال أو أصوات معينة، على نحو مستقل عن التنظيم الشكلى الذى تتجسد فيه هذه العناصر، وعن الفكرة أو المعنى الذى يفترض أن العمل الفنى يعبر عنه.
- القيم الشكلية: تنشأ هذه القيمة من اللذة التى يجدها الذهن فى إدراك جميع أنواع العلاقات، والتى قد تتمثل فى التماثل أو التضاد، والعلاقات بين العمل الكامل وأجزائه، وفى نماذج وتوافق الأشكال الهندسية المختلفة، وفى انسجام الألوان أو تعارضها، وفى علاقات السلم الموسيقى وارتفاع وانخفاض الصوت والإيقاع الصوتى.
- القيم الارتباطية: وتسمى أيضا بالقيم اللفظية أو التصورية أو الأدبية أو الرمزية أو قيم المضمون، وهى التى تضفى على الموضوعات الجمالية معنى

يمكن التعبير عنه بالكلمات، وتصبح مرتبطة بالموضوعات لأنها تذكر المشاهد أو السامع بأشياء أو أفكار أو حوادث خارج المجال الجمالى. قد تطربنا قطعة موسيقية أو أغنية معينة لأن لها ارتباطا بمناسبة سعيدة فى الماضى، وقد يصيبا بالاكتئاب منظر معين – جميل فى الواقع – لأنه قد ارتبط بحادثة محزنة قد وقعت. فالذكريات لها تأثير على الحالة المزاجية، والمنظور الذى نرى به الموضوع الجمالى.

كان الإغريق يرون الجمال فى الشباب المقترن بالتناسق، وسيطر عليهم مفهوم الانسجام كمثل أعلى للجمال. افترض الفنان الإغريقى أن الذكاء والعقل يكمنان فى إدراك قوانين الانسجام. فسر العالم الرياضى الإغريقى فيثاغورث فى القرن السادس قبل الميلاد – الجمال بكونه جوهر آلية التناسق العددى التى تنطبق على أبسط الظواهر وأعقدها، فالعالم أنغام وأعداد، وجمال الموسيقى مثل جمال الوجود يوجد فى النسب والعلاقات الهندسية، كما يكمن جمال الكون فى الانسجام الدقيق بين حركة الكواكب. أما بالنسبة للرومان، فكانوا يرون الجمال فى الضخامة والنظام والقوة والبأس. تحول الإحساس بالجمال إلى الألوان وامتزاجها فى عصر النهضة الأوروبية. وفى العصر الحديث أصبح الشىء المادى الملموس والمحسوس، والمتعة الوقتية، والسرعة فى الأداء: من موسيقى ورقص وخلافه، من أساسيات القيم الجمالية التى تبعث النشوة والسرور.

وكانت القيم الجمالية عند الفيلسوف الإغريقى أفلاطون هى أشياء مميزة وسامية، ويجب أن توضع فى مواضع أعلى وأسمى من المحسوسات المادية. إن الشىء الجميل جمالا خالصا هو الذى لا يتغير، ولا يتبدل، ولا يزول أو يذوى. كان أفلاطون يرى أنه لكى يتحقق هذا الفكر الجمالى، فلابد أن يوجد عالم آخر مختلف عن هذا الكون الذى يعيش فيه الإنسان، بحيث يختفى فى هذا العالم الخفى

جميع الأشياء التى لا تتوافق مع الجمال الخالص، فلا يوجد سيئ أو ردىء، ولا يوجد عدم اتساق أو عدم تناغم، ولا يوجد قبح أو نشاز.

أسس أفلاطون مدرسته الفلسفية فى القرن الرابع قبل الميلاد تحت اسم الأكاديمية، بعد عصر انتشر فيه فكر الفلسفة السفسطائية، وشاعت فيه آراء الشعراء والمفكرين الشكاكين. اشتقت كلمة أكاديمية Academy من المكان الذى كان يجتمع فيه سقراط مع تلاميذه فى شمال / غرب أثينا. كان هذا المكان هو حديقة عامة، كانت مملوكة إلى بطل أسطورى محلى يسمى أكاديموس Academos، ثم تحولت هذه الأراضى إلى حدائق غناء، تحتوى ينابيع المياه وممرات للتريض، لعامة الناس. سميت مدرسة أفلاطون بالأكاديمية Academia، كما أطلق على تلاميذه اسم الأكاديميين Academists. وانتشر مصطلح الأكاديمية فى العصر الحديث ليصبح جزءًا من الثقافتين الغربية والشرقية.

لم يكن السفسطائيون فلاسفة بالمعنى العلمى للكلمة، ولكنهم كانوا محاضرين ومعلمين فى فروع عديدة من الآداب والعلوم والفن مثل الشعر والموسيقى والخطابة والدراما، بجانب الفلسفة. بدأ هؤلاء المعلمون فى التربح والكسب من وراء عملهم مما أغضب أفلاطون وتلاميذه الذين كانوا يرون أن الفلسفة " بمعنى حب الحكمة " هى أسمى من توظيفها فى جمع المال أو استغلالها فى مجالات مادية. كان السفسطائيون هم أول من أوجدوا وطبقوا المزج بين النظرية والتطبيق العملى، وبين وضع القيم والمعايير الأخلاقية والجمالية وبين الواقع الفعلى.

وظلت القيم الجمالية على مر العصور لها معايير نسبية، تتغير من إنسان لآخر، وفى زمان يتحول بعد ذلك إلى تاريخ تتغير فيه القيم ومعاييرها، وفى مكان يدخل كعنصر فى تكوين الثقافة التى تشتمل على القيم الجمالية. شاب التفكير

الجمالى الكثير من عدم وضوح المفاهيم المستخدمة فى علم الجمال. كانت المصطلحات التقليدية الرئيسية فى علم الجمال هى: الجمال، والفن، والطبيعة، ثم أضيف مصطلح جديد فى العصر الحديث وهو التعبير. ودار النقاش حول إذا كان الجمال ذاتيا أو موضوعيا؟... أى هل يكمن الجمال فى الموضوع، أم يوجد فقط فى ذهن المشاهد؟... وإذا كان الجمال هو خليط من الذاتية والموضوعية، فأى نسب يكون هذا الخلط. ثم يتحول النقاش إلى مقارنة الفن بالطبيعة، وارتباطهما، وهل يجب أن يحاكى الفن الطبيعة دون مغالاة أو إنقاص، أو للفنان الحق فى إخراج ما بداخله من قيم جمالية ذاتية. وإذا اتجهنا إلى الفن كمضمون، فما هى المعايير التى يجب تطبيقها فى الحكم والمقارنة...؟

وفى علاقة الفن بالأخلاق، كتب هنتر ميد فى المرجع السابق: (لقد تفاوتت وجهات النظر فى هذه المشكلة إلى حد بعيد، بل إننا حتى فى الوقت الحاضر، حين أصبحت الأخلاق أكثر تحررا فى عمومها مما كانت عليه طوال أجيال عديدة، ما زلنا نجد اتجاهات تتباعد إلى حد يوحى باستحالة الوصول إلى اتفاق فى الرأى، فهل ينبغى الحكم على موضوع أى عمل فنى بنفس المعايير الأخلاقية التى نستخدمها فى الحكم على هذا الفعل أو الموقف – الذى يمثله هذا الموضوع – لو حدث فى الحياة الواقعية؟... أم أن للفنان الحرية فى معالجة أى موضوع بالطريقة – التى يراها مناسبة؟... وهل يقف العمل فى فراغ أخلاقى، أم أن هناك نوعا من الأخلاقيات العليا توصف بأنها أكثر تحررا، وربما تعمقا من أية أخلاق اجتماعية مألوفة، يتعين على الفن الخلاق أن يراعيها...؟).

تمثل التجربة الجمالية الفردية مزيجا من ثلاثة أنواع – السابق ذكرها – من اللذة أو الإشباع للإنسان، فالمشاهد / المستمع العادى – غير المحترف – يبدى أكبر قدر من الاهتمام بالمضمون الارتباطى، وقدرا أقل بالحسى، ثم تجىء القيمة

الشكلية فى المؤخرة. أما الفنان أو الناقد المحترف فإنه إذا تأمل أو استمع إلى نفس العمل فسوف يعكس هذا الترتيب، ليجىء المضمون الارتباطى الذاتى فى نهاية ترتيب القيمة الجمالية. ويمكن القول – بصفة عامة – إن التجربة الجمالية هى مزيج من الثلاث قيم السابقة، وإن اختلفت النسب من فرد لآخر.

إن المصطلحات التى تستخدم فى إيجاد معنى للقيمة الجمالية والأخلاقية يصعب تفسير معناها بخلاف المجالات الأخرى التى يفهم فيها معنى القيمة بشكل صحيح ودقيق مثل الاقتصاد، والتكنولوجيا، والقانون، والمنطق. شرح أوليفرليمان فى كتابه " مستقبل الفلسفة فى القرن الواحد والعشرين " غموض استخدام مصطلح القيمة فى النواحى الجمالية: (مصطلح قيمة Value فى حد ذاته هو أحد المصطلحات الذى يمكن أن نوظفه بشكل مختلف. فربما ينقل قيمة شىء أساسى أو ترتيب قيمى. فالقيمة الاقتصادية عادة ما نفكر فيها بهذه الطريقة الكمية، وربما تنسب القيمة. فنحن نصف فعل شخص ما على أنه فعل " شجاع " أو قطعة موسيقية على أنها "شجية". ومن ناحية الفلسفة القيمية Axiologically – الإكسيولوجى هو فرع الفلسفة الذى يتعامل مع القيم الأخلاقية والجمالية والمنطقية – ، يمكن أن يقال إن قيمة " الإجازة " (العطلة) تكمن فى " التحرر من الروتين "، أو إن قيمة الزواج فى " الصحبة ". وجدير بالذكر أنه على الرغم من الاتفاق بشكل عام على أن الشىء إذا انفصل عن سماتـــه الجمالية لا يكون له قيمة عملية، إلا إن بعض ردود الأفعـــال (العاطفية) التى تنجمع من خبرتنا بالكثير من " الفنون التمثيلية " قد تشكل نوعا من التعليم الأخلاقى. والحقيقة هى أن العمل الفنى الذى يمتلك هذه القوة، يصدق أو يشهد على المهارة الموظفة فى تصميمه. فتصوير شخصية ما أو تمثيلها يمكن أن يصنع نوعا من الوهم يكون نجاحه مسجلا فى المقابل بين رد فعلنا تجاهه والحقيقة التى يمثلها. وهكذا، فمع التأثير التحذيرى الذى

تبذله فلسفة العقل، فإن المقارنات بين الخبرة الأخلاقية والخبرة التقليدية للفن، يمكن أن تكشف عن مصدر التنوير المتبادل).

كان مفهوم الفيلسوف الإسكتلندى دافيد هيوم للجمال من منظور اللذة: (لو تأملنا جميع الفروض التى وضعت لتفسير الفرق بين الجمال والقبح، لوجدناها كلها تنحل إلى أن الجمال نظام وتركيب للأجزاء، مهيأ لإعطاء اللذة والرضى النفسى، إما بسبب التكوين الفطرى لطبائعنا، أو بسبب العرف، أو بسبب النزوة العارضة... فاللذة والألم إذن ليسا مرافقين ضروريين فحسب للجمال والقبح، ولكنهما يكونان جوهرهما ذاته؟... وما الجمال إلا شكل يحدث اللذة، كما أن القبح بناء للأجزاء يحدث الألم). من منظور آخر ومن أجل التوفيق بين الفن والأخلاق، كتب الفيلسوف الأمريكى جون ديـــوى: (لو أن الفن نظر إليه كقوة معترف بها فى الجماعة الإنسانية، بدلا من أن يعامل كوسيلة للترفيه والإمتاع فى بعض اللحظات، وكوسيلة للعروض المظهرية، ولو أن الأخلاق قد فهمت على أنها متماثلة هى وأى جانب من جوانب القيمة التى تشارك فى التجربة، لما وجدت مشكلة خاصة بالعلاقة بين الفن والأخلاق). إن الفن جزء من ثقافة أى حضارة، لا يعرف التنبؤ والتخطيط والإحصائيات، ولا يتبع القواعد والمواعظ والتعليمات، هو فقط نبض إحساس ومشاعر المجتمع نحو البيئة، ونتيجة لتفاعلات عناصر المجتمع: الفردية والجماعية.

المحبـــــة / الحب

يمكن تناول هذا الموضوع من محورين: الأول كقيمة سامية، والثانى كغريزة فطرية، والحب Love يعنى إنكار الذات، وعدم التفكير والتركيز فى النفس ولكن فى من/ ما نحب. والحب قد يتجه فى اتجاه روحى / صوفى، وقد يشوبه المادية من حيازة وتملك. ويسير الحب فى اتجاه معاكس للأنانية وتحقيق الذات، أو فى اتجاه الكراهية وعدم الرغبة.

أما المحور الثانى فهو كما تراه مدرسة التحليل النفسى كدافع فطرى يرثه الإنسان ويولد به. كتب الدكتور فرج عبد القادر عن غريزة الحب Love Instict: (هذا الدافع هو الذى يؤدى إلى استمرار الحياة وازدهارها، ويؤدى إلى كل ما هو إيجابى وبناء فى الحياة. فنحن نحب بعضنا البعض بسبب هذا الدافع... ولولاه ما حنت الأم على وليدها وعانت فى سبيل إسعاده وإشباع مطالبه، ولولاه أيضا ما شقى الأب فى هذه الحياة لتوفير سبل العيش والسعادة لأبنائه وذويه... وما ضحى المواطن حياته فداء لوطنه. وغريزة الحب هى التى تدفع الفرد إلى أن يحب ذويه وأصدقاءه وزملاءه... كما يدفع الفرد إلى أن يحب فردا من الجنس الآخر حبا مشوبا بالرغبة الجنسية، أو حبا نقيا خالصا من الجنس). يرى فرويد أن من هذه الغريزة ومن غريزة التدمير – كنقيض لها – تتكون جميع الدوافع النفسية التى تسير السلوك الإنسانى.

الرحمة / الرأفة

الرحمة والرأفة Mercy كلمتان مترادفتان، وإن كانت الرأفة أرق من الرحمة ولا تكاد تقع فى الكراهية، أما الرحمة فقد تقع فى الكراهية والإيذاء للمصلحة مثل "القتل الرحيم". تعرف قواميس اللغة العربية كلمة الرحمة بالرقة والتعطف والمغفرة. فى بعض الحالات تتعارض هذه القيمة مع القيم الأخرى، فقد تنص القوانين على أن جزاء القتل هو الإعدام، ولكن فى ظروف معينة مثل أن يكون الجانى مسئولا عن أطفال صغار هم فى احتياج إلى الرعاية والكفالة، قد يكون ترتيب الرحمة – كقيمة – يقع قبل تطبيق العدالة.

العدالة والمساواة

لم تطبق العدالة بمعناها المطلق بمعنى تساوى المعايير على جميع البشر، فقد اختلف مفهوم العدالة Justice باختلاف المذاهب الفكرية، فهى بالنسبة للمذهب

الطبيعى القانون الأساسى للطبيعة Law of Nature وهو " القوى يحكم ويملك "، وأن " السمك الكبير يأكل السمك الصغير "، وأن الأقوى له كل الحق فى أن ينـال ويحوز أية متعة متاحة. بينما يرى المذهب المثالى أنه بالرغم من أن للطبيعة "أنيابا مخضبة بالدماء"، إلا أن للإنسان عقلا يحاول به أن يبعد بالإنسانية عن القانون الطبيعى / البدائى الذى يتمثل فى "البقاء للأقوى". ومن الطبيعة الأنانية للإنسان، أصبحت العدالة توظف للصالح الشخصى، الذى يعود على الفرد – أولا – ثم المجتمع أو الدولة بالفائدة والنفع.

بالرغم من أن جميع الدساتير الحديثة تنص على مساواة الجميع أمام القانون، إلا أن البشرية لم تمارس المساواة – بشكل عام – إلا فى الكتب السماوية. لقد تعايش الإنسان على مر العصور مع الأفضلية فى المعاملة، وكانت العنصرية، والعرقية، واللون، والجنس (ذكر / أنثى)، والوضع الاجتماعى والثروة... دوما من عناصر التفرقة فى المعاملة. وما دام يحوى الجهاز النفسى للإنسان العواطف النابعة من النظرة الذاتية وليست المجردة، وما دام يحمل مكنون الإنسان عواطف الحب والكراهية، فإنه سيعيش دائما بالمحاباة، والتحيز الذى تدعمه التفسيرات والتبريرات المناسبة، مثل الدعم والتكافل، ومتطلبات المهنة. ليس الجميع يدفع نفس نسبة الضرائب، فالغنى يدفع أكثر من الفقير، وفرص العمل ليست متساوية لجميع الناس فالأناقة فى الرجل والجمال فى المرأة تعطيهما فرصة أكبر من غيرهم، وأصبحت التفرقة بين فئات المجتمع مشروعة فى القوانين، فلم يتوان البشر فى إيجاد الحجج المنطقية وغير المنطقية لإضفاء الشرعية على عدم المساواة، ولم يحدث أبدا أن طبقت القوانين على جميع أفراد المجتمع سواء بما فى ذلك الحكام. كان رأى فيلسوف مذهب القوة فردريك نيتشة فى المساواة، أنها تهدف إلى تسميم جوهر الطبيعة الإنسانية، فهى تؤدى إلى تقييد وتحطيم القوى باسم حماية الضعيف، كما تقوض مصدر القوة الوحيد الذى منه يستطيع البشر الحصول على معنى الحياة.

كان الفيلسوف الألمانى نيتشه يرى أن إرادة القوة هى فى الوقت نفسه إرادة الخطر، وأن الحياة السامية تنشد الخطر وتلح فى طلبه. ذهب نيتشه إلى أن اللذة والألم حقيقتان ضروريتان، وهما أسمى ما فى ذات الإنسان من مشاعر وأحاسيس. وإذا كان الألم ينشأ من عدم القدرة على المقاومة وعدم الإحساس بالسيادة، فإن اللذة تنبع من انتصار الإرادة على كل ما يقف فى طريقها، وهذا لا يستلزم قوة جسدية أو مادية، وإنما قوة نفسية ومعنوية.

تذهب فلسفة القوى إلى أن القسوة وحدها هى التى ترفع الإنسان إلى أعلى، تهذبه وتقويه. سارت طبيعة الكون منذ وجود الكائن الحى على قانون الانتخاب الطبيعى، أى البقاء للأقوى ماديا وعقليا، والذى يملك مقومات القوة من سلطة وسلاح ومال ومعرفة. الضعيف غير جدير بالحياة فى هذه الفلسفة، وإن عاش فيجب أن يحيا عبدا للقوى. إن الحمية والكبرياء والشجاعة كلها كلمات نابعة من القوة التى تؤدى إلى المخاطرة بالحياة حتى ينال الفرد الاعتراف من الآخرين كذات مستقلة لها الاحترام والتبجيل.

التســـــامى

يعنى التسامى Sublimation تحويل الطاقة النفسية البدائية / العدوانية إلى أهداف سامية أخلاقيا وثقافيا تفيد المجتمع. إن سلوك الإنسان النابع من غريزة الهدم والتدمير يؤدى إلى إنهيار المجتمع ككل، وجميع أفراده الذين يكونون هذا المجتمع، لذا فالمجتمع الصالح هو الذى يسعى ويجاهد فى تحويل طاقة العنف الداخلية إلى طاقة مثمرة ومفيدة. تقع هذه المسئولية أولا على الأسرة، ثم على المؤسسات التعليمية والمجتمع الذى يباشر الأمور العامة. إن الانفعالات السلبية القوية، والطاقة التى تبذل فى العراك والشجار يمكن أن تبدد فى الألعاب الرياضية وفى المنافسة الإيجابية. تؤدى الحرية فى التعبير، إلى امتصاص الطاقة الانفعالية

obeikandl.com

السلبية فيفرغ الإنسان ما بداخله من ضغوط نفسية. وبواسطة التعليم والتدريب يمكن للفرد إدارة الانفعالات التى تؤثر سلبيا على الذات وعلى الآخرين.

كتب فيكتور فرانكل عن التسامى بالذات: (يتميز الوجود الإنسانى بنوع خاص بظاهرتين إنسانيتين، الظاهرة الأولى تتمثل فى مقدره الإنسان على التحرر الذاتى Self - Detachment، أما الظاهـــرة الثانية فتتمثل فى مقدرة الإنسان على التسامى بالذات أو تجاوز الذات Self - Transcendence، وفى الحقيقة أن من بين ما يتميز به الإنسان فى صميم كيانه أن كونه إنسانا إنما يشير ويتوجه دائما إلى شىء آخر يوجد فى خارجه. ولذا، فإن تناول الإنسان كمنظومة مغلقة إنما ينطوى على فهم خاطئ وتفسير متعسف غير صحيح. وفى الواقع إن كينونة الإنسان إنما تعنى بعمق أنه منفتح على العالم – ذلك العالم الغنى بكائنات أخرى عليه مواجهتها، والملىء بمعان عليه أن يحققها). ترى شارلوت بيهلر أن الإنسان يعيش بالغرضية، أى إعطاء معنى للحياة، وأنه يبتدع فيها قيما، وبتكوينه الفكرى يتجه صوب الخلق والإبداع والقيم الروحية والحميدة.

الإنجـــــاز

والإنجاز Achivement هو رغبة الفرد وميله لإنجاز ما يعهد إليه من أعمال ومهام، بأحسن مستوى يستطيع أن يصل إليه، وأعلى إنتاجية ممكنة. تستخدم إدارة الأعمال دافع الإنجاز لتحسين منظومة العمل، عن طريق نظام الحوافز والمكافآت المادية والمعنوية. ذهبت الفلسفة البراجماتية Pragmatism إلى أن " الفكرة " تكون لها قيمة – فقط عندما يتم إنجاز الهدف وينتج عنه قيمة مضافة Value Added. وتقوم هذه الفلسفة على السلوك العلمى والعملى، ونتيجة هذا السلوك، فهى فلسفة العمل بمعناه الواسع والنافع. كانت خلاصة فيلسوف البراجماتية الأمريكى وليم جيمس هى الدعوة إلى بذل المجهود الفردى فى البناء المطرد لعالم أعظم وأفضل، وأن المعنى الحقيقى لحياة الإنسان ينحصر فى

الحصول على القيمة الفورية لما يقوم به الإنسان من عمل، أى مقابل ما تم إنجازه. تجىء هذه القيمة على صورة: إما سعادة ناتجة من صنع عالم أفضل، أو الحصول على عائد مادى يمكن به تحقيق الاحتياجات التى تؤدى إلى السعادة الفردية حسب منظور الفرد للسعادة.

الأســـــــرة

منذ العصر الحجرى، كان البشر يتزوجون من أجل تنشئة الأطفال وتوريث الممتلكات وتنظيم الحياة، مع إشباع الغريزة الجنسية. لم تكن جميع الزيجات قائمة على نصوص قانونية وإنما على ترتيبات غير رسمية مقبولة لدى المجتمع بصفة عامة. وكان من النادر أن يترك اختيار الشريك للزوجين، حيث كان الآباء، وكبار الشخصيات فى المجتمع هم فى العادة الذين يقررون التناسب والتوافق. كان الزواج وسيلة لتحويل الغرباء إلى أقرباء، ولإحلال السلام والتحالف، ولإقامة علاقات تبادلية دائمة. كانت المرحلة التالية هى الزواج من أجل الحب، والبحث عن " عش دافئ " يجمع ما بين الزوجين لتكوين أسرة سعيدة. سادت هذه المرحلة فى عصر العقل والتنوير الأوروبى بدءا من منتصف القرن الثامن عشر. ولكن بحلول سبعينيات القرن الماضى، أصبح الزواج علاقة شخصية بين طرفين، وضعفت مؤسسة الزواج الاجتماعية فى صورتها التقليدية السابقة.

لقد اتسم المجتمع الغربى الحديث بالرتم السريع، والمفهوم المادى للتقييم، وأصبح هدف الإنسان هو السعى للفوز بكل شىء فى أقرب وقت. تحول الزواج التقليدى فى المرحلة الحالية إلى معايشة مؤقتة مع شخص متوافق مع القيم والمعايير الموضوعة من الطرفين، حتى ظهور شخص آخر فى التوافق وفى إشباع رغبات الطرف الآخر. ومع تطور شخصية الفرد – إلى الأحسن أو الأسوأ – مع مرور زمن رحلته الحياتية، فإن التوافق بين الطرفين غالبا ما يتجه إلى الانحراف أو الانهيار، ويصبح على كل طرف البحث عن شريك آخر.

يعتبر مجتمع " نا " الذي يقع جنوب غربى الصين هو الوحيد الذى يجتنب الزواج تماما. فى هذا المجتمع تعتبر معاشرة ذوى القربى وأفراد العائلة من المحرمات بشكل صارم. يقوم الأهل من أخوة وأخوات بمساعدة أخواتهم فى تربية الأطفال الذين يتم إنجابهم من خلال ممارسة الجنس بطرق عشوائية مع أشخاص من خارج نطاق العائلة.

إذا نظر الإنسان إلى الأسرة على أنها "قيمة" تعلو على جميع اعتبارات المنفعة الفردية، وأنها تمثل غاية أخلاقية لابد من تحقيقها، سوف يتوصل البشر إلى توثيق الروابط العائلية واستقرار الحياة الأسرية التى تعتبر دعامة المجتمع واللبنة الأولى فى بنائه. إن الأسرة هى المستقبل من خلال تربية وتقويم النشأ الجديد، وهى المعلم الأول للطفل الذى يرضع – مع رضاعته الطبيعية – القيم الأخلاقية والمثل العليا. تمر الشركة الزوجية بعمليات متواصلة من الشد والجذب، ومن الأخذ والعطاء، ومن الإثارة والملل،... صراع خفى فى داخل الشريكين. قد تبدأ الشراكة بتطلع الطرفين إلى السيطرة والهيمنة، غير مقدرين أن الأسرة مسئولية مشتركة على قدر من المساواة، كل حسب قدراته وإمكانياته فى تحمل الالتزامات والواجبات. تعتبر الخلافات بين الزوجين ظاهرة طبيعية، فلا يوجد تماثل بين شخصين فى كل الطباع أو اتفاق فى جميع الآراء، كما تعتبر صور النزاع فى بعض الأحيان تنفيسا عن عواطف مكبوتة أو غضب داخلى أو مشكلات فى العمل، أو محاولة لإثبات الذات. إن التسامح فى إدارة العلاقات الزوجية ليس استسلاما أو ضعفا، بل هو حب ورغبة فى حياة زوجية سعيدة، كما يدل على الثقة فى النفس، والقوة فى تخطى التفاهات من الأمور. إن الزواج شراكة مقدسة يجب أن تتسم بالمرونة والتفاهم، والتعاطف والدفء من الشريكين.

الحد من تلوث البيئـــة

يمكن تعريف تلوث البيئة بأنها مجموع التغيرات المستحدثة والتى تسبب أضرارًا للكائنات الحية وغير الحية وتتمثل هذه الأضرار فى المرض أو الوفاة، أو التغيير فى الأشكال البيئية، أو الإزعاج، أو الإخلال بالأنظمة البيئية، وخلافه من الكثير من الآثار السلبية. أدى التقدم الصناعى الذى صاحب الثورة الصناعية والتكنولوجية فى العصر الحديث إلى إحداث ضغط هائل على كثير من الموارد الطبيعية خصوصا الموارد غير المتجددة مثل الفحم والنفط والغاز الطبيعى وبعض الخامات المعدنية والمياه الجوفية. إن هذه الموارد الطبيعية التى يستنزفها الإنسان، احتاج تكوينها إلى عصور جيولوجية طويلة ولا يمكن تعويضها فى حياة الإنسان المعاصر. لقد ظهرت أصناف جديدة من الموارد الكيميائية لم تكن تعرفها البيئة من قبل، فتصاعدت الغازات الضارة من مداخن المصانع ومحطات القوى الكهربية وعوادم السيارات، ولوثت الهواء، وألقت المصانع بمخلفاتها ونفاياتها الكيميائية السامة فى البحيرات والأنهار، وأسرف الإنسان الحديث فى استخدام المبيدات الحشرية ومبيدات الآفات والمخصبات الزراعية، وأدى كل ذلك إلى تلوث البيئة. ازدادت مساحة الأراضى التى جردت من الأحراش والغابات، وارتفعت أعداد الحيوانات والنباتات التى تنقرض كل عام، كما ارتفعت نسبة الأنهار والبحيرات التى فقدت كل ما بها من كائنات حية وتحولت إلى مستنقعات مليئة بالملوثات.

كان الإنسان فى العصور القديمة يعانى من أهوال البيئة، وتقلبات الطبيعة، من زلازل وفيضانات، ورعد وبرق، وارتفاع غير عادى فى درجات الحرارة، وعصور جليدية. أما الآن فإن البيئة تئن من ظلم الإنسان لها، تعانى من ملوثاته، وتطلب الحماية من جبروته. ينقسم التلوث بصفة عامة إلى قسمين أساسيين:

- التلوث المادى: مثل التلوث بأكسيد الكربون، وأكاسيد الكبريت، وتلوث الهواء

بالرصاص الخارج مع عادم السيارات وبمركبات الكلوروفلوركربون، وبالشوائب بجميع أنواعها وأشكالها.

- التلوث غير المادى: كالضوضاء التى تنتج عن محركات السيارات والآلات والورش والماكينات، وغيرها من أجهزة الراديو والتليفزيونات ومكبرات الصوت. يؤثر الضجيج على أعصاب الكائنات الحية، ويلحق بها الأذى الفسيولوجى من إصابة جهاز السمع، والضرر النفسى من توتر وقلق وضغط عصبى.

أثبت الأبحاث أن الإسراف فى استخدام المبيدات الحشرية المنزلية يؤدى إلى نتائج ضارة وخطيرة بالإنسان تفوق الأضرار التى تسببها الحشرات نفسها. كما أثبتت الأبحاث أيضا أن العطور التى يستخدمها الإنسان – والتى يدخل فى تركيبها مواد كيميائية – لها أضرار خطيرة على صحة الإنسان، حيث إن تلك العطور والروائح المختلفة مثل الإسبراى وماء الكولونيا وغيرها، تسبب التهابات بالجلد وتأثيرا سلبيا على الجهاز التنفسى. إذا أضفنا إلى ذلك آفة التدخين، والمواد الكيميائية الحافظة التى تضاف إلى معلبات الأغذية المحفوظة التى يتناولها الإنسان، نجد أن الإنسان محاط بملوثات تفوق قدرته على الاستيعاب، خاصة عامة البشر الذين لا يدركون حجم المأساة التى يعيشونها من جراء تلوث البيئة. يمكن تلخيص أهم مشاكل التلوث التى تهدد كوكب الأرض فى النقاط التالية:

- زيادة نسبة غاز ثانى أكسيد الكربون الذى ينتج من احتراق الوقود، والذى يؤدى إلى زيادة درجة حرارة الغلاف الجوى. قد يؤدى ارتفاع درجة الحرارة إلى إذابة جليد القطبين الجليدين وارتفاع مستوى الماء فى المحيطات والبحار، والذى قد يؤدى بدوره إلى إغراق العديد من الأراضى والمدن القريبة من سواحل المحيطات والبحار. كما تؤدى زيادة هذه الغازات إلى حدوث ظاهرة الصوبة الخضراء Green House Effect والتى تستخدم فى تدفئة بعض النباتات والأشجار خاصة فى فصل الشتاء.

- القضاء على الغابات، مما يؤدى إلى التغيير فى طبيعة الأرض والتوازن الحيوى، وخفض كمية الأكسجين الموجودة فى الطبيعة والتى تنتج من عمليات البناء الضوئى للنباتات والأشجار الورقية الخضراء، والذى يحتاجه الإنسان والحيوان فى تنفسه.
- التلوث بالمعادن الثقيلة وأخطرها الزئبق والرصاص والكادميوم، وينتج من إلقاء مخالفات التصنيع فى الأنهار والبحار ومن عوادم السيارات. ينتج من هذه المركبات تشوهات الأجنة فى الأرحام، والتخلف العقلى عند الأطفال، والتسمم وأمراض الكلى والرئة والعقم والسرطان.
- الأمطار الحمضية الضارة، الناتجة من تصاعد أبخرة النتروجين والكبريت بكميات كبيرة فى الجو مثل اختلاط تلك الأبخرة والغازات الضارة بمياه الأمطار، فتسقط على سطح الأرض فى صورة أحماض ضارة مثل حامض النيتريك وحامض الكبريتيك وغيرها من الأحماض التى تسبب الأمراض، وتقضى على الكائنات الحية فى الأنهار وتسمم التربة الزراعية.
- الزحف على الأراضى الزراعية الخصبة، بإقامة المبانى والمصانع والمنشآت الأخرى عليها، وكذلك قلة خصوبة الأراضى الزراعية لزيادة ملوحتها الناتجة من ارتفاع مستوى المياه الجوفية لانخفاض كفاءة نظم الصرف. أيضا زيادة ظاهرة التصحر أى زحف الصحراء على الأراضى الخصبة وعلى الغابات.
- تأثر الجهاز العصبى بالضوضاء فى صورة تنبيهات كهربية تعبر الألياف العصبية حتى تصل إلى لحاء المخ فتهيج خلايا هذه المنطقة. تثير التنبيهات الكهربية – الناتجة من الضوضاء – إلى مناطق تحت لحاء المخ، وخاصة التى تعرف بالتكوين الشبكى. ينجم عن هذه الإثارة تهيج فى الجهاز العصبى اللاإرادى خاصة الجهاز السمبثاوى، الذى يؤثر بالتالى على الكثير من أعضاء الجسم، فيسرع القلب فى دقاته مما يسبب زيادة فى النبض، كما يرتفع

ضغط الدم، وتتقلص بعض عضلات الجهاز الهضمى. تتأثر إفرازات المعدة وغيرها، فترتفع إفرازات الغدد الصماء فى الدم لتصل إلى أعضاء الجسم المختلفة لتسهم فى إحداث ضرر بالغ بالصحة، كما تؤثر الضوضاء تأثيرا مباشرا على الأذن وعلى حاسة السمع لدى الإنسان.

القيمة فى علم الاقتصاد

القيمة Value / Esteem فى الاقتصاد تعنى ثمن الشىء الممتلك، أو تقييمه وتقديره. والمقصود بكلمة الممتلك هو الشىء الذى يحوزه فرد، أو جماعة، أو مؤسسة، أو شركة، أو دولة، وليس شيئًا مجردًا لا يمتلكه أحد، فلا يستطيع أحد – مثلا – أن يقيم ثمن الشمس، أو كوكب المشترى. إن الشىء موضوع التقدير أو التقييم يجب أن يكون قابلا للمتاجرة والاستبدال بشىء آخر، قد يكون سلعة أو منتجا أو نقودًا أو خلافه. وتتكون قوة الشىء (أ) من قوة الشىء (ب) والذى يمكن استبداله به، فإذا امتلك إنسان كمية من الماس فى منظومة (فرد/ جماعة/ هيئة..) لا تمتلك شيئا آخر (نقود/ سلع / ..) لاستبدالها بالماس، فالماس فى هذه الحالة لا يقيم بشىء إلا التزين به، ولكنه لا يساوى شيئا من الناحية التجارية. مثال آخر، إن الماء تكون قيمته مرتفعة جدا لإنسان ظمأن فى صحراء جرداء ليس بها نقطة ماء، بشرط وجود الطرف الآخر الذى يملك مقابل هذه القيمة المرتفعة، فإذا كان الآخر لا يملك شيئا لاستبداله بالماء، فعلى الطرف الأول أن يعطى الآخر الماء مجانا، أو يتركه محجوزا لديه، ولكن دون أى قيمة تذكر. إن قيمة الشىء تتكون وتتشكل فى قوة الشىء الذى يمكن استبداله به.

تعتمد القيمة من وجهة النظر الاقتصادية على شيئين فقط، وهما الرغبة والندرة، وإذا انعدمت إحداهما، فقيمة الشىء تعنى الصفر أى قيمة منعدمة فإذا كان الماء متاحًا فى كل مكان وسهل الوصول إليه، فقيمته تصبح منعدمة. والماء فى صحراء جرداء ليس له قيمة أيضا إذا لم تتواجد الرغبة فى الحصول عليه. وتتزايد

القيمة بإطراد مع زيادة النقص فى الشىء المطلوب أى مع وجود الندرة، وكذلك فإن زادت كمية العرض فإن القيمة تتناقص (قانون العرض والطلب)، وذلك فى حالة وجود الرغبة فى الشراء / الاستبدال.

ظهرت المقايضة Barter أو استبدال السلع والخدمات قبل اختراع النقود واستعمالها فى العمليات التجارية من بيع وشراء، ولكن ما زالت عملية المقايضة بالسلع تجرى فى حالات معينة وفى المناطق الريفية. كانت المقايضة فى الأزمنة الغابرة هى أساس تطوير الأسواق التجارية، وكان يتم فيها تقدير "القيمة العادلة" لكل من الطرفين، أو القيمة المكافئة للشىء المراد استبداله. نبعت "القيمة" و"السعر" فى الزمن الماضى من عملية المساومة، كل طرف يريد أن يقلل من كمية الشىء الذى يملكه ويمكن التنازل به للآخر، وفى نفس الوقت يطلب كمية أكبر من الشىء المستبدل الذى يملكه الطرف الآخر. وهنا تظهر شدة رغبة الطرفين فى الشىء الذى يملكه الطرف الآخر، وتوافر كميات السلعة التى يملكها والتى يملكها الطرف الآخر، لتتحدد الكميتان المستبدلتان، وعليه تتحدد قيمة الخدمة أو السلعة المعروضة.

ذهب الفيلسوف الاقتصادى الألمانى كارل ماركس إلى أن قيمة المنتج أو السلعة هى فقط تكلفة / قيمة العمالة، وأن الفرق بين سعر المنتج / السلعة وتكلفة العمالة هى أرباح خالصة تذهب إلى الرأسمالى الذى يملك المصنع أو الحقل، والذى يملك كذلك أدوات الإنتاج ورأس المال العامل. إذا كان ماركس قد اقتبس معظم آرائه من الاقتصاديين الكلاسيكيين البريطانيين مثل آدم سميث، وتوماس مالثيوس، ودافيد ريكاردو، إلا أنه قد أضاف إلى أفكارهم " نظرية قيمة العمل " The Labor Theory of Value، والتى تسقط أى اعتبار للهيئة / الشركة / المؤسسة التى تقوم بالإنتاج أو الخدمات، كما تهمل تأثير العرض والطلب. إن قيمة السلعة / المنتج / الخدمة، يتحدد فقط من قيمة العمل اللازم لإنجاز الخدمة أو إخراج المنتج فى الصورة التى يطلبها المستهلك.